كتاب الفقر والزهد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي تسبح له الرمال، وتسجد له الظلال، وتتدكدك من هيبته الجبال، خلق الإنسان من الطين اللازب والصلصال، وزين صورته بأحسن تقويم وأتم اعتدال، وعصم قلبه بنور الهداية عن ورطات الضلال، وأذن له في قرع باب الخدمة بالغدوّ والآصال، ثم كحل بصيرة المخلص في خدمته بنور العبرة حتى لاحظ بضيائه حضرة الجلال، فلاح له من البهجة والبهاء والكمال، ما استقبح دون مبادي إشراقه كل حسن وجمال، واستثقل كل ما صرفه عن مشاهدته وملازمته غاية الاستثقال، وتمثل له ظاهر الدنيا في صورة امرأة جميلة تميس وتختال، وانكشف له باطنها عن عجوز شوهاء عجنت من طينة الخزي وضربت في قالب النكال، وهي متلفلفة بجلبابها لتخفي قبائح أسرارها بلطائف السحر والاحتيال، وقد نصبت حبائلها في مدارج الرجال، فهي تقتنصهم بضروب المكر والاغتيال، ثم لا تجتزىء معهم بالخلف في مواعيد الوصال، بل تقيدهم مع قطع الوصال بالسلاسل والأغلال، وتبليهم بأنواع البلايا والأنكال، فلما انكشف للعارفين منها قبائح الأسرار والأفعال، زهدوا فيها زهد المبغض لها فتركوها وتركوا التفاخر والتكاثر بالأموال، وأقبلوا بكنه هممهم على حضرة الجلال، واثقين منها بوصال ليس دونه انفصال، ومشاهدة أبدية لا يعتريها فناء ولا زوال، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد الأنبياء وعلى آله خير آل.

أما بعد: فإنّ الدنيا عدوّة لله عز وجل بغرورها ضل من ضل، وبمكرها زل من زل، فحبها رأس الخطايا والسيئات، وبغضها أم الطاعات وأس القربات. وقد استقصينا ما يتعلق بوصفها وذم الحب لها في كتاب ذم الدنيا من ربع المهلكات، ونحن الآن نذكر فضل البغض لها والزهد فيها فإنه رأس المنجيات، فلا مطمع في النجاة بالانقطاع عن الدنيا والبعد منها لكن مقاطعتها إما أن تكون بانزوائها عن العبد ويسمى ذلك فقرًا، وإما بانزواء العبد عنها ويسمى ذلك زهدًا، ولكل واحد منهما درجة في نيل السعادات وحظ في الإعانة على الفوز والنجاة. ونحن الآن نذكر حقيقة الفقير والزهد ودرجاتهما وأقسامهما وشروطهما وأحكامهما ونذكر الفقر في شطر من الكتاب والزهد في شطر آخر منه، ونبدأ بذكر الفقر فنقول:

وفيه بيان حقيقة الفقر، وبيان فضيلة الفقير مطلقًا، وبيان خصوص فضيلة الفقراء، وبيان فضيلة الفقر على الغني، وبيان أدب الفقير في فقره، وبيان أدبه في قبوله العطاء، وبيان تحريم السؤال بغير ضرورة، وبيان مقدار الغني المحرّم للسؤال، وبيان أحوال السائلين، والله الموفق بلطفه وكرمه.

بيان حقيقة الفقر واختلاف أحوال الفقير وأساميه:

اعلم أنّ الفقر عبارة عن فقد ما هو محتاج إليه، أما فقد ما لا حاجة إليه فلا يسمى فقرًا، وإن كان المحتاج إليه موجودًا مقدورًا عليه لم يكن المحتاج فقيرًا، وإذا فهمت هذا لم تشك في أنّ كل موجود سوى الله تعالى فهو فقير لأنه محتاج إلى دوام الوجود في ثاني الحال ودوام وجود مستفاد من فضل الله تعالى وَجُوده، فإن كان في الوجود موجود ليس وجوده مستفاد له من غيره فهو الغني المطلق، ولا يتصوّر أن يكون مثل الموجود إلا واحدًا، فليس في الوجود إلا غني واحد، وكل من عداه فإنهم محتاجون إليه ليمدّوا وجودهم بالدوام، وإلى هذا الحصر الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ [محمد: ٣٨] هذا معنى الفقر مطلقًا، ولكنا لسنا نقصد بيان الفقر المطلق بل الفقر من المال على الخصوص، وإلا ففقر العبد بالإضافة إلى أصناف حاجاته لا ينحصر؛ لأنّ حاجاته لا حصر لها. ومن جملة حاجاته ما يتوصل إليه بالمال، وهو الذي نريد الآن بيانه فقط، فنقول: كل فاقد للمال فإنا نسميه فقيرًا بالإضافة إلى المال الذي فقده إذا كان ذلك المفقود محتاجًا إليه في حقه، ثم يتصوّر أن يكون له خمسة أحوال عند الفقر. ونحن نميزها ونخصص كل حال باسم لنتوصل بالتمييز إلى ذكر أحكامها:

الحالة الأولى: وهي العليا. أن يكون بحيث لو أتاه المال لكرهه وتأذى به وهرب من أخذه مبغضًا له ومحترزًا من شره وشغله وهو الزهد، واسم صاحبه الزاهد.

الثانية: أن يكون بحيث لا يرغب فيه رغبة يفرح لحصوله ولا يكرهه كراهة يتأذى بها ويزهد فيه لو أتاه، وصاحب هذه الحالة يسمى راضيًا.

الثالثة: أن يكون وجود المال أحب إليه من عدمه لرغبة له فيه ولكن لم يبلغ من رغبته أن ينهض لطلبه، بل إن أتاه صفوًا عفوًا أخذه وفرح به، وإن افتقر إلى تعب في طلبه لم يشتغل به، وصاحب هذه الحالة نسميه قانعًا، إذ قنع نفسه بالموجود حتى ترك الطلب مع ما فيه من الرغبة الضعيفة.

الرابعة: أن يكون تركه الطلب لعجزه، وإلا فهو راغب فيه رغبة لو وجد سبيلًا إلى طلبه ولو بالتعب لطلبه، أو هو مشغول بالطلب وصاحب هذه الحالة نسميه بالحريص.

الخامسة: أن يكون ما فقده من المال مضطرًا إليه كالجائع الفاقد للخبز والعاري الفاقد للثوب، ويسمى صاحب هذه الحالة مضطرًا كيفما كانت رغبته في الطلب إما ضعيفة وإما قوية، وقلما تنفك هذه الحالة عن الرغبة، فهذه خمسة أحوال: أعلاها الزهد والاضطرار إن انضم إليه الزهد وتصوّر ذلك فهو أقصى درجات الزهد كما سيأتي بيانه، ووراء هذه الأحوال الخمسة حالة هي أعلى من الزهد وهي أن يستوي عنده وجود المال وفقده؛ فإن وجده لم يفرح به ولم يتأذ، وإن فقده فكذلك، بل حاله كما كان حال عائشة رضي الله تعالى عنها إذ

أتاها مائة ألف درهم من العطاء فأخذتها وفرّقتها من يومها فقالت خادمتها: ما استطعت فيما فرّقت اليوم أن تشتري لنا بدرهم لحمًا نفطر عليه، فقالت: لو ذكرتيني لفعلت، فمن هذا حاله لو كانت الدنيا بحذافيرها في يده وخزائنه لم تضره، إذ هو يرى الأموال في خزانة الله تعالى لا في يد نفسه، فلا يفرق بين أن تكون في يده أو في يد غيره، وينبغي أن يسمى صاحب هذه الحالة المستغني، لأنه غني عن فقد المال ووجوده جميعًا، وليفهم من هذا الاسم معنى يفارق اسم الغني المطلق على الله تعالى وعلى كل من كثر ماله من العباد، فإنّ من كثر ماله من العباد وهو يفرح به فهو فقير إلى بقاء المال في يده، وإنما هو غني عن دخول المال في يده لا عن بقائه، فهو إذن فقير من وجه، وأما هذا الشخص فهو غني عن دخول المال في يده وعن بقائه في يده وعن خروجه من يده أيضًا، فإنه ليس يتأذى به ليحتاج إلى إخراجه، وليس يفرح به ليحتاج إلى بقائه. وليس فاقدًا له ليحتاج إلى الدخول في يديه فغناه إلى العموم أميل، فهو إلى الغنى الذي هو وصف الله تعالى أقرب، وإنما قرب العبد من الله تعالى بقرب الصفات لا بقرب المكان، ولكنا لا نسمي صاحب هذه الحالة غنيًّا بل مستغنيًا، ليبقى الغني اسمًا لمن له الغنى المطلق عن كل شيء. وأما هذا العبد فإن استغنى عن المال وجودًا أو عدمًا فلم يستغن عن أشياء أخر سواه ولم يستغن عن مدد توفيق الله له ليبقى استغناؤه الذي زين الله به قلبه، فإنّ القلب المقيد بحب المال رقيق والمستغني عنه حرّ، والله تعالى هو الذي أعتقه من هذا الرق فهو محتاج إلى دوام هذا العتق، والقلوب متقلبة بين الرق والحرّية في أوقات متقاربة؛ لأنها بين أصبعين من أصابع الرحمن، فلذلك لم يكن اسم الغني مطلقًا عليه مع هذا الكمال إلا مجازًا.

واعلم أن الزهد درجة هي كمال الأبرار وصاحب هذه الحالة من المقرّبين، فلا جرم صار الزهد في حقه نقصانًا، إذ حسنات الأبرار سيئات المقربين، وهذا لأن الكاره للدنيا مشغول بالدنيا، كما أن الراغب فيها مشغول بها، والشغل بما سوى الله تعالى حجاب عن الله تعالى، إذ لا بعد بينك وبين الله تعالى يكون البعد حجابًا، فإنه أقرب إليك من حبل الوريد، وليس هو في مكان حتى تكون السماوات والأرض حجابًا بينك وبينه، فلا حجاب بينك وبينه إلا شغلك بغيره، وشغلك بنفسك وشهواتك شغل بغيره، وأنت لا تزال مشغولًا بنفسك وبشهوات نفسك فكذلك لا تزال محجوبًا عنه، فالمشغول بحب نفسه مشغول عن الله تعالى، والمشغول ببغض نفسه أيضًا مشغول عن الله تعالى بكل ما سوى الله، مثاله مثال الرقيب الحاضر في مجلس يجمع العاشق والمعشوق، فإن التفت قلب العاشق إلى الرقيب وإلى بغضه واستثقاله وكراهة حضوره فهو في حال اشتغال قلبه ببغضه مصروف عن التلذذ بمشاهدة معشوقه، ولو استغرقه العشق لغفل عن غير المعشوق ولم يلتفت إليه، فكما أن النظر إلى غير المعشوق لحبه عند حضور المعشوق شرك في العشق ونقص فيه فكذا النظر إلى غير المحبوب

لبغضه شرك فيه ونقص، ولكن أحدهما أخف من الآخر، بل الكمال في أن لا يلتفت القلب إلى غير المحبوب بغضًا وحبًا، فإنه كما لا يجتمع في القلب حبان في حالة واحدة فلا يجتمع أيضًا بغض وحب في حالة واحدة؛ فالمشغول ببغض الدنيا غافل عن الله كالمشغول بحبها، إلا أن المشغول بحبها غافل وهو في غفلته سالك في طريق البعد، والمشغول ببغضها غافل وهو في غفلته سالك في طريق القرب، إذ يرجى له أن ينتهي حاله إلى أن تزول هذه الغفلة وتتبدل بالشهود؛ فالكمال له مرتقب؛ لأن بغض الدنيا مطية توصل إلى الله فالمحب والمبغض كرجلين في طريق الحج مشغولين بركوب الناقة وعلفها وتسييرها، ولكن أحدهما مستقبل الكعبة والآخر مستدبر لها، فهما سيان بالإضافة إلى الحال في أن كل واحد منهما محجوب عن الكعبة ومشغول عنها، ولكن حال المستقبل محمود بالإضافة إلى المستدبر إذ يرجى له الوصول إليها، وليس محمودًا بالإضافة إلى المعتكف في الكعبة الملازم لها الذي لا يخرج منها حتى يفتقر إلى الاشتغال بالدابة في الوصول إليها، فلا ينبغي أن تظنّ أن بغض الدنيا مقصود في عينه، بل الدنيا عائق عن الله تعالى، ولا وصول إليه إلا بدفع العائق، ولذلك قال أبو سليمان الداراني رحمه الله: من زهد في الدنيا واقتصر عليه فقد استعجل الراحة، بل ينبغي أن يشتغل بالآخرة؛ فبين أن سلوك طريق الآخرة وراء الزهد كما أن سلوك طريق الحج وراء دفع الغريم العائق عن الحج، فإذن قد ظهر أن الزهد في الدنيا إن أريد به عدم الرغبة في وجودها وعدمها فهو غاية الكمال، وإن أريد به الرغبة في عدمها فهو كمال بالإضافة إلى درجة الراضي والقانع والحريص، ونقصان بالإضافة إلى درجة المستغني، بل الكمال في حق المال أن يستوي عندك المال والماء، وكثرة الماء في جوارك لا تؤذيك بأن تكون على شاطىء البحر، ولا قلته تؤذيك إلا في قدر الضرورة، مع أن المال محتاج إليه كما أن الماء محتاج إليه فلا يكون قلبك مشغولًا بالفرار عن جوار الماء الكثير ولا يبغض الماء الكثير، بل تقول: أشرب منه بقدر الحاجة وأسقي منه عباد الله بقدر الحاجة ولا أبخل به على أحد، فهكذا ينبغي أن يكون المال؛ لأن الخبز والماء واحد في الحاجة، وإنما الفرق بينهما في قلة أحدهما وكثرة الآخر، وإذا عرفت الله تعالى ووثقت بتدبيره الذي دبر به العالم، علمت أن قدر حاجتك من الخبز يأتيك لا محالة ما دمت حيًا كما يأتيك قدر حاجتك من الماء، على ما سيأتي بيانه في كتاب التوكل إن شاء الله تعالى.

قال أحمد بن أبي الحواري: قلت لأبي سليمان الداراني: قال مالك بن دينار للمغيرة: اذهب إلى البيت فخذ الركوة التي أهديتها لي فإن العدوّ يوسوس لي أن اللص قد أخذها، قال أبو سليمان: هذا من ضعف قلوب الصوفية: قد زاده في الدنيا ما غلبه من أخذها، فبين أنّ كراهية كون الركوة في بيته التفات إليها سببه الضعف والنقصان.

فإن قلت: فما بال الأنبياء والأولياء هربوا من الماء ونفروا منه كل النفار؟ فأقول: كما

هربوا من الماء على معنى أنهم ما شربوا أكثر من حاجتهم ففرّوا عما وراءه ولم يجمعوه في القرب والروايا يديرونه مع أنفسهم، بل تركوه في الأنهار والآبار والبراري للمحتاجين إليه، لا أنهم كانت قلوبهم مشغولة بحبه أو بغضه وقد حملت خزائن الأرض إلى رسول الله ﷺ وإلى أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فأخذوها ووضعوها في مواضعها وما هربوا منها [١]، إذ كان يستوي عندهم المال والماء والذهب والحجر، وما نقل عنهم من امتناع فإما أن ينقل عمن خاف أن لو أخذه أن يخدعه المال ويقيد قلبه فيدعوه إلى الشهوات، وهذا حال الضعفاء، فلا جرم البغض للمال والهرب منه في حقهم كمال؛ وهذا حكم جميع الخلق؛ لأن كلهم ضعفاء إلا الأنبياء والأولياء، وإما أن ينقل عن قوي بلغ الكمال ولكن أظهر الفرار والنفار نزولاً إلى درجة الضعفاء ليقتدوا به في الترك؛ إذ لو اقتدوا به في الأخذ لهلكوا، كما يفرّ الرجل المعزم بين يدي أولاده من الحية لا لضعفه عن أخذها ولكن لعلمه أنه لو أخذها أخذها أولاده إذا رأوها فيهلكون، والسير بسير الضعفاء ضرورة الأنبياء والأولياء والعلماء، فقد عرفت إذن أن المراتب ست وأعلاها رتبة المستغني ثم الزاهد ثم الراضي ثم القانع ثم الحريص. وأما المضطرّ فيتصوّر في حقه أيضًا الزهد والرضى والقناعة ودرجة تختلف بحسب اختلاف هذه الأحوال، واسم الفقير يطلق على هذه الخمسة. أما تسمية المستغني فقيرًا فلا وجه لها بهذا المعنى؛ بل إن سمي فقيرًا فبمعنى آخر وهو معرفته بكونه محتاجًا إلى الله تعالى في جميع أموره عامة وفي بقاء استغنائه عن المال خاصة، فيكون اسم الفقير له كاسم العبد لمن عرف نفسه بالعبودية وأقرّ بها؛ فإنه أحق باسم العبد من الغافلين. وإن كان اسم العبد عامًّا للخلق فكذلك اسم الفقير عام، ومن عرف نفسه بالفقر إلى الله تعالى فهو أحق باسم الفقير، فاسم الفقير مشترك بين هذين المعنيين، وإذا عرفت هذا الاشتراك فهمت أن قول رسول الله ﷺ: «أَعُوذُ بِكَ مِنَ الفَقْرِ» [٢]، وقوله عليه السلام: «كَادَ الفَقْرُ أَنْ يَكُونَ كُفْرًا» [٣]، لا يناقض قوله ﷺ: «أَحْيِنِي

---

(١) **صحيح**: حديث: إن خزائن الأرض حملت إلى رسول الله ﷺ وإلى أبي بكر وعمر فأخذوها ووضعوها في مواضعها هذا معروف. وقد تقدم في آداب المعيشة من عند البخاري تعليقا مجزوما به من حديث أنس: أتى النبي ﷺ بمال من البحرين وكان أكثر مال أتى به، فخرج رسول الله ﷺ إلى الصلاة ولم يلتفت إليه، فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه، فقلما كان يرى أحدا إلا أعطاه. ووصله عمر بن محمد البحيري في صحيحه من هذا الوجه. وفي الصحيحين من حديث عمرو بن عوف: «قدم أبو عبيدة بمال من البحرين فسمعت الأنصار بقدومه... الحديث» [البخاري: ٣١٥٨، ومسلم: ٢٩٦١]، ولهما من حديث جابر: «لو جاءنا مال البحرين أعطيتك هكذا ثلاثا» [البخاري: ٢٢٩٦، ومسلم: ٢٣١٤]، فلم يقدم حتى توفى رسول الله ﷺ، فأمر أبو بكر مناديا فنادى: من كان له على رسول الله ﷺ عدة أودين فليأتنا، فقلت: إن النبي ﷺ وعدني، فحثا لي ثلاثا. [أخرجه البخاري تعليقاً عقب حديث: ٤٢١، ولم أره موصولاً].

(٢) **صحيح**: حديث «أعوذ بك من الفقر». تقدم في الأذكار والدعوات. [البخاري: ٦٣٦٨، ومسلم: ٥٨٩ عن عائشة].

(٣) **ضعيف**: حديث «كاد الفقر أن يكون كفرا». تقدم في ذم الحسد. [انظر ضعيف الجامع: ٤١٤٨].

مِسْكِينًا وَأَمِتْنِي مِسْكِينًا» [(١)]، إذ فقر المضطرّ هو الذي استعاذ منه، والفقر الذي هو الاعتراف بالمسكنة والذلة والافتقار إلى الله تعالى هو الذي سأله في دعائه وعلى كل عبد مصطفى من أهل الأرض والسماء.

بيان فضيلة الفقر مطلقًا:

أما من الآيات: فيدل عليه قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾ [الحشر:٨] الآية. وقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة:٢٧٣] ساق الكلام في معرض المدح، ثم قدم وصفهم بالفقر على وصفهم بالهجرة والإحصار، وفيه دلالة ظاهرة على مدح الفقر.

وأما الأخبار في مدح الفقر فأكثر من أن تحصى: روى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ؟» فقالوا: موسر من المال يعطي حق الله من نفسه وماله. فقال: «نعم الرجل هذا وليس به» قالوا: فمن خير الناس يا رسول الله؟ قال: «فَقِيرٌ يُعْطِي جُهْدَهُ» [(٢)]، وقال ﷺ لبلال: «الْقَ اللَّهَ فَقِيرًا وَلَا تَلْقَهُ غَنِيًّا» [(٣)] وقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الفَقِيرَ المُتَعَفِّفَ أَبَا العِيالِ» [(٤)]، وفي الخبر المشهور: «يَدْخُلُ فُقَرَاءُ أُمَّتِي الجَنَّةَ قَبْلَ أَغْنِيَائِهَا بِخَمْسِمِائَةِ عَامٍ» [(٥)]، وفي حديث آخر «بِأَرْبَعِينَ خَرِيفًا» [(٦)]، أي أربعين سنة، فيكون المراد به تقدير تقدّم الفقير الحريص على الغني الحريص، والتقدير بخمسمائة عام تقدير تقدّم الفقير الزاهد على الغني الراغب، وما ذكرناه من اختلاف درجات الفقر يعرّفك بالضرورة تفاوتًا بين الفقراء في درجاتهم، وكأن الفقير الحريص على درجة من خمس وعشرين درجة

---

(١) **حسن لغيره**: حديث «اللهم أحيني مسكينا وأمتني مسكينا». رواه الترمذي من حديث أنس وحسنه، وابن ماجه والحاكم وصححه من حديث أبي سعيد وقد تقدم. [الترمذي: ٢٣٥٢، وابن ماجه: ٤١٢٦، وانظر صحيح الترغيب: ٣١٩٢].

(٢) **موضوع**: حديث ابن عمر أنه ﷺ قال لأصحابه: أي الناس خير؟ فقالوا: موسر من المال. أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس بسند ضعيف مقتصرا على المرفوع منه دون سؤاله لأصحابه وسؤالهم له. [انظر السلسلة الضعيفة: ٣٥٦٨].

(٣) **ضعيف**: حديث: قال لبلال «الق الله فقيرا ولا تلقه غنيا». أخرجه الحاكم في كتاب علامات أهل التحقيق من حديث بلال. ورواه الطبراني من حديث أبي سعيد بلفظ «مت فقيرا ولا تمت غنيا» وكلاهما ضعيف. [انظر ضعيف الترغيب: ٥٤٣].

(٤) **ضعيف**: حديث «إن يحب الفقير المتعفف أبا العيال». أخرجه ابن ماجه من حديث عمران بن حصين، وقد تقدم. [ابن ماجه: ٤١٢١، وانظر السلسلة الضعيفة: ٥١].

(٥) **صحيح**: حديث «يدخل فقراء أمتي الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة عام». أخرجه الترمذي من حدث أبي هريرة وقال: حسن صحيح وقد تقدم. [الترمذي: ٢٣٥٤، وانظر صحيح الترغيب: ٣١٨٩].

(٦) **صحيح**: حديث: دخولهم قبلهم بأربعين خريفا. أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن عمرو، إلا أنه قال: فقراء المهاجرين، والترمذي من حديث جابر وأنس. [مسلم: ٢٩٧٩، والترمذي: ٢٣٥٥، وانظر صحيح الترغيب: ٣١٨٦].

من الفقير الزاهد، إذ هذه نسبة الأربعين إلى خمسمائة، ولا تظنن أن تقدير رسول الله ﷺ يجري على لسانه جزافًا وبالاتفاق، بل لا يستنطق إلا بحقيقة الحق فإنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، وهذا كقوله ﷺ: «الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ جُزْءٌ مِنْ سَتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ» (١)، فإنه تقدير تحقيق لا محالة، لكن ليس في قوة غيره أن يعرف علة تلك النسبة إلا بتخمين، فأما بالتحقيق فلا، إذ يعلم أن النبوة عبارة عما يختص به النبي ﷺ ويفارق به غيره، وهو يختص بأنواع من الخواص:

أحدها: أن يعرف حقائق الأمور المتعلقة بالله وصفاته والملائكة والدار الآخرة، لا كما يعلمه غيره بل مخالفًا له بكثرة المعلومات وبزيادة اليقين والتحقيق والكشف.

والثاني: أن له في نفسه صفة بها تتم له الأفعال الخارقة للعادات كما أن لنا صفة بها تتم الحركات المقرونة بإرادتنا وباختيارنا وهي القدرة وإن كانت القدرة والمقدور جميعًا من فعل الله تعالى.

والثالث: أن له صفة بها يبصر الملائكة ويشاهدهم كما أن للبصير صفة بها يفارق الأعمى حتى يدرك بها المبصرات.

والرابع: أن له صفة بها يدرك ما سيكون في الغيب إما في اليقظة أو في المنام إذ بها يطالع اللوح المحفوظ فيرى ما فيه من الغيب، فهذه كمالات وصفات يعلم ثبوتها للأنبياء ويعلم انقسام كل واحد منها إلى أقسام، وربما يمكننا أن نقسمها إلى أربعين وإلى خمسين وإلى ستين، ويمكننا أيضًا أن نتكلف تقسيمها إلى ستة وأربعين بحيث تقع الرؤيا الصحيحة جزءًا واحدًا من جملتها ولكن تعيين طريق واحد من طرق التقسيمات الممكنة لا يمكن إلا بظن وتخمين فلا ندري تحقيقًا أنه الذي أراده رسول الله ﷺ أم لا، وإنما المعلوم مجامع الصفات التي بها تتم النبوة وأصل انقسامها، وذلك لا يرشدنا إلى معرفة علة التقدير، فكذلك نعلم أن الفقراء لهم درجات كما سبق، فأما لم كان هذا الفقير الحريص مثلًا على نصف سدس درجة الفقير الزاهد حتى لم يبق له التقدم بأكثر من أربعين سنة إلى الجنة واقتضى ذلك التقدم بخمسمائة عام فليس في قوة البشر غير الأنبياء الوقوف على ذلك إلا بنوع من التخمين ولا وثوق به، والغرض التنبيه على منهاج التقدير في أمثال هذه الأمور، فإن الضعيف الإيمان قد يظن أن ذلك يجري من رسول الله ﷺ على سبيل الاتفاق، وحاشا منصب النبوّة عن ذلك ولنرجع إلى نقل الأخبار فقد قال ﷺ أيضًا: «خَيْرُ هذِهِ الأُمَّةِ فُقَرَاؤُهَا وَأَسْرَعُها تَضَجُّعًا فِي الجَنَّةِ

---

(١) **صحيح**: حديث «الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة». أخرجه البخاري من حديث أبي سعيد، ورواه هو ومسلم من حديث أبي هريرة وعبادة بن الصامت وأنس بلفظ «رؤيا المؤمن جزء... الحديث» وقد تقدم. [البخاري: ٦٩٨٩ عن أبي سعيد، والبخاري: ٦٩٨٨، ومسلم: ٢٢٦٣ عن أبي هريرة، والبخاري: ٦٩٨٣، ومسلم: ٢٢٦٤ عن أنس، والبخاري: ٦٩٨٧، ومسلم: ٢٢٦٤ عن عبادة بن الصامت].

ضُعَفَاؤُهَا» [(١)]، وقال ﷺ: «إنَّ لِي حِرْفَتَيْنِ اثْنَتَيْنِ فَمَنْ أَحبهما فَقَدْ أَحَبَّنِي وَمَنْ أَبْغَضَهُمَا فَقَدْ أَبْغَضَنِي: الفَقْرُ وَالجِهَادُ» [(٢)]، وروي أن جبريل عليه السلام نزل على رسول الله ﷺ فقال: يا محمد. إن الله عز وجل يقرأ عليك السلام ويقول: «أَتُحِبُّ أَنْ أَجْعَلَ هذِهِ الجِبَالَ ذَهَبًا» [(٣)] وتكون معك أينما كنت، فأطرق رسول الله ﷺ ثم قال: «يَا جِبْرِيلُ، إنَّ الدُّنْيَا دَارُ مَنْ لا دَارَ لَهُ وَمَالُ مَنْ لا مَالَ لَهُ وَلَهَا يَجْمَعُ مَنْ لا عَقْلَ لَه» فقال له جبريل: يا محمد ثبتك الله بالقول الثابت.

وروي أن المسيح مر في سياحته برجل نائم ملتف في عباءة، فأيقظه وقال: يا نائم قم فاذكر الله تعالى، فقال ما تريد مني؟ إني قد تركت الدنيا لأهلها، فقال له قم إذن يا حبيبي.

ومر موسى برجل نائم على التراب وتحت رأسه لبنة ووجهه ولحيته في التراب وهو متزر بعباءة، فقال: يا رب عبدك هذا في الدنيا ضائع، فأوحى الله تعالى إليه: يا موسى أما علمت أني إذا نظرت إلى عبد بوجهي كله زويت عنه الدنيا كلها.

وعن أبي رافع أنه قال: ورد على رسول الله ﷺ ضيف فلم يجد عنده ما يصلحه، فأرسلني إلى رجل من يهود خيبر وقال: «قُلْ لَهُ يَقُولُ لَكَ مُحَمَّدٌ أَسْلِفْنِي أَوْ بِعْنِي دَقِيقًا إِلَى هِلالِ رَجَبٍ» قال فأتيته فقال: لا والله إلا برهن، فأخبرت رسول الله ﷺ بذلك فقال: «أَمَا واللَّهِ إنِّي لأَمِينٌ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ أَمِينٌ فِي أَهْلِ الأَرْضِ وَلَوْ بَاعَنِي أَوْ أَسْلَفَنِي لأَدَّيْتُ إِلَيْهِ، اذْهَبْ بِدِرْعِي هذَا إِلَيْهِ فَارْهَنْهُ، فَلَمَّا خَرَجْتُ نَزَلَتْ هذِهِ الآيَةُ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [طه: ١٣١] [(٤)]» الآية، وهذه الآية تعزية لرسول الله ﷺ عن الدنيا، وقال ﷺ: «الفَقْرُ أَزْيَنُ بِالمُؤْمِنِ مِنَ العذَارِ الحَسَنِ عَلَى خَدِّ الفَرَسِ» [(٥)]، وقال ﷺ: «مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ مُعَافًى فِي جِسْمِهِ آمِنًا فِي سِرْبِهِ عِنْدَهُ قوتُ يَوْمِهِ؛ فَكَأَنَّمَا حيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا» [(٦)].

---

(١) **لا أصل له**: حديث «خير الأمة فقراؤها، وأسرعها تضجعا في الجنة ضعفاؤها». لم أجد له أصلا. [انظر السلسلة الضعيفة: ٥٦٧].

(٢) **لا أصل له**: حديث «إن لي حرفتين اثنتين». لم أجد له أصلا. [انظر السلسلة الضعيفة: ٥٦٦].

(٣) **ضعيف**: حديث: أن جبريل نزل فقال: إن الله يقرأ عليك السلام ويقول: أتحب أن أجعل هذه الجبال ذهبا. هذا ملفق من حديثين فروى الترمذي من حديث أبي أمامة «عرض علي ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهبا، قلت: لا يا رب، ولكن أشبع يوما وأجوع يوما» [الترمذي: ٢٣٤٧، وانظر ضعيف الترغيب: ١٨٦٥] الحديث وقال. حسن ولأحمد من حديث عائشة «الدنيا دار من لا دار له... الحديث» [أحمد: ٢٣٨٩٨، وانظر ضعيف الترغيب: ١٨٨٤] وقد تقدم في ذم الدنيا.

(٤) حديث أبي رافع: ورد على رسول الله ﷺ ضيف فلم يجد عنده ما يصلحه، فأرسلني إلى رجل من يهود خيبر. أخرجه الطبراني بسند ضعيف.

(٥) **ضعيف**: حديث «الفقر أزين بالمؤمن من العذار الحسن على خد الفرس». رواه الطبراني من حديث شداد بن أوس بسند ضعيف والمعروف أنه من كلام عبد الرحمن بن زياد ابن أنعم، رواه ابن عدي في الكامل هكذا. [انظر السلسلة الضعيفة: ٥٦٤].

(٦) **حسن لغيره**: حديث «من أصبح منكم معافى في جسمه». أخرجه الترمذي وقد تقدم. [الترمذي: ٢٣٤٦،

وقال كعب الأحبار: قال الله تعالى لموسى عليه السلام: يا موسى إذا رأيت الفقر مقبلاً فقل مرحبًا بشعار الصالحين.

وقال عطاء الخراساني: مر نبي من الأنبياء بساحل فإذا هو برجل يصطاد حيتانًا، فقال: بسم الله وألقى الشبكة فلم يخرج فيها شيء، ثم مرَّ بآخر فقال باسم الشيطان وألقى شبكته فخرج فيها من الحيتان ما كان يتقاعس من كثرتها. فقال النبي: يا رب ما هذا وقد علمت أن كل ذلك بيدك، فقال الله تعالى للملائكة اكشفوا لعبدي عن منزلتيهما، فلما رأى ما أعد الله تعالى لهذا من الكرامة ولذاك من الهوان قال: رضيت يا رب.

وقال نبينا ﷺ: «اطَّلَعْتُ فِي الجَنَّةِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الفُقَرَاءَ، وَاطَّلَعْتُ فِي النَّارِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الأَغْنِيَاءَ وَالنِّسَاءَ» وفي لفظ آخر: «فَقُلْتَ أَيْنَ الأَغْنِيَاءُ؟ فَقِيلَ حَبَسَهُمْ الجَدّ» وفي حديث آخر: «فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ النِّسَاءَ فَقُلْتُ مَا شَأْنُهُنَّ؟ فقيل شَغَلَهُنَّ الأَحْمَرَانِ الذَّهَبُ وَالزَّعْفَرَانُ» (١)، وقال ﷺ: «تُحْفَةُ المُؤْمِنِ فِي الدُّنْيَا الفَقْرُ» (٢)، وفي الخبر: «آخِرُ الأَنْبِيَاءِ دُخُولًا الجَنَّةَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ عَلَيْهِما السَّلامُ لِمَكَانِ مُلْكِهِ وَآخِرُ أَصْحَابِي دُخُولًا الجَنَّةَ عَبْدُ الرَّحْمنِ بْنُ عَوْفٍ لأَجْلِ غِنَاهُ» (٣)، وفي حديث آخر: «رَأَيْتُهُ يَدْخُلُ الجَنَّةَ زَحْفًا» (٤).

وقال المسيح: بشدة يدخل الغني الجنة.

وفي خبر آخر عن أهل البيت رضي الله عنهم أنه ﷺ قال: «إذا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا ابْتَلاهُ، فَإذا أَحَبَّهُ الحُبَّ البَالِغَ اقْتَنَاهُ قيلَ: وَمَا اقْتَنَاهُ؟ قالَ: لَمْ يَتْرُكْ لَهُ أَهْلًا وَلا مَالًا» (٥).

وفي الخبر: «إذا رأيت الفقر مقبلًا فقل مرحبًا بشعار الصالحين، وإذا رأيت الغنى مقبلًا فقل ذنب عجلت عقوبته» (٦).

وانظر صحيح الترغيب: ٨٣٣].

(١) ضعيف جداً: حديث «اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء». تقدم في آداب النكاح مع الزيادة التي في آخره. [انظر ضعيف الترغيب: ١٢٥٥].

(٢) ضعيف: حديث «تحفة المؤمن في الدنيا الفقر». رواه محمد بن خفيف الشيرازي في شرف الفقر، وأبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث معاذ بن جبل بسند لا بأس به، ورواه أبو منصور أيضا فيه من حديث ابن عمر بسند ضعيف جدا. [انظر السلسلة الضعيفة: ٣٣٩٢].

(٣) حديث «آخر الأنبياء دخولا الجنة سليمان بن داود عليهما السلام لمكان ملكه وآخر أصحابي دخولا الجنة عبد الرحمن بن عوف لأجل غناه». تقدم، وهو في الأوسط للطبراني بإسناد فرد، وفيه نكارة.

(٤) حديث «رأيته - يعني عبد الرحمن بن عوف - يدخل الجنة زحفا». تقدم وهو ضعيف. [أحمد: ٢٤٣٢١].

(٥) حديث «إذا أحب الله عبدا ابتلاه». أخرجه الطبراني من حديث أبي عتبة الخولاني.

(٦) حديث «إذا رأيت الفقر مقبلا فقل مرحبا بشعار الصالحين، وإذا رأيت الغنى مقبلا فقل ذنب عجلت عقوبته». أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية مكحول عن أبي الدرداء ولم يسمع منه قال: قال رسول الله ﷺ «أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: يا موسى... الحديث» فذكره بزيادة في أوله. ورواه أبو نعيم في الحلية من قول كعب الأحبار غير مرفوع بإسناد ضعيف.

وقال موسى عليه السلام: يا رب من أحباؤك من خلقك حتى أحبهم لأجلك؟ فقال: كل فقير فقير؛ فيمكن أن يكون الثاني للتوكيد، ويمكن أن يراد به الشديد الضر.

وقال المسيح صلوات الله عليه وسلامه: إني لأحب المسكنة وأبغض النعماء، وكان أحب الأسامي إليه صلوات الله عليه أن يقال له يا مسكين. ولما قالت سادات العرب وأغنياؤهم للنبي ﷺ: اجعل لنا يومًا ولهم يومًا يجيئون إليك ولا نجيء، ونجيء إليك ولا يجيئون، يعنون بذلك الفقراء مثل بلال وسلمان وصهيب وأبي ذرّ وخباب بن الأرت وعمار ابن ياسر وأبي هريرة وأصحاب الصفة من الفقراء رضي الله عنهم أجمعين أجابهم النبي ﷺ إلى ذلك، وذلك لأنهم شكوا إليه التأذي برائحتهم وكان لباس القوم الصوف في شدّة الحر؛ فإذا عرقوا فاحت الروائح من ثيابهم، فاشتدّ ذلك على الأغنياء منهم الأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن الفزاري وعباس بن مرداس السلمي وغيرهم، فأجابهم رسول الله ﷺ أن لا يجمعهم وإياهم مجلس واحد؛ فنزل عليه قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ [الكهف:٢٨] يعني الفقراء. ﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف:٢٨] يعني الأغنياء ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ [الكهف:٢٨] يعني الأغنياء إلى قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف:٢٩][(١)] الآية.

واستأذن ابن أم مكتوم على النبي ﷺ وعنده رجل من أشراف قريش، فشق ذلك على النبي ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤﴾ [عبس:١-٤] يعني ابن أم مكتوم. ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ [عبس:٥-٦][(٢)] يعني هذا الشريف.

وعن النبي ﷺ أنه قال: «يُؤْتَى بِالعَبْدِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيَعْتَذِرَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ كَمَا يَعْتَذِرُ الرَّجُلُ لِلرَّجُلِ فِي الدُّنْيَا فَيَقُولُ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي ما زَوَيْتُ الدُّنْيَا عَنْكَ لِهَوَانِكَ عَلَيَّ وَلَكِنْ لِمَا أَعْدَدْتُ لَكَ مِنَ الكَرَامَةِ وَالفَضِيلَةِ، اخْرُجْ يا عَبْدِي إِلَى هذِهِ الصُّفُوفِ، فَمَنْ أَطْعَمَكَ فِيَّ أَوْ كَسَاكَ فِيَّ بِذَلِكَ يُرِيدُ وَجْهِي فَخُذْ بِيَدِهِ فَهُوَ لَكَ، وَالنَّاسُ يَوْمَئِذٍ قَدْ أَلْجَمَهُم العَرَقُ فَيَتَخَلَّلُ الصُّفُوفَ وَيَنْظُرُ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ بِهِ فَيَأْخُذُ بِيَدِهِ وَيُدْخِلُهُ الجَنَّةَ»[(٣)].

---

(١) **صحيح**: حديث: قال سادات العرب وأغنياؤهم للنبي ﷺ: اجعل لنا يوما ولهم يوما يجيئون إليك ولا نجيء، ونجيء إليك ولا يجيئون. تقدم من حديث خباب، وليس فيه أنه كان لباسهم الصوف ويفوح ريحهم إذا عرقوا، وهذه الزيادة من حديث سلمان. [ابن ماجه: ٤١٢٧، **وانظر صحيح ابن ماجه**].

(٢) **صحيح**: حديث استئذان ابن أم مكتوم على النبي ﷺ وعنده رجل من أشراف قريش ونزول قوله تعالى ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ [عبس: ١] أخرجه الترمذي من حديث عائشة وقال غريب. قلت: ورجاله رجال الصحيح. [الترمذي: ٣٣٣١، **وانظر صحيح الترمذي**].

(٣) حديث «يؤتى بالعبد يوم القيامة فيعتذر الله إليه كما يعتذر الرجل إلى الرجل في الدنيا». أخرجه أبو الشيخ في

وقال عليه السلام: «أكْثِرُوا مَعْرِفَةَ الفُقَرَاءِ وَاتَّخِذُوا عِنْدَهُمْ الأَيَادِي فَإِنَ لَهُمْ دَوْلَةً» قالوا: يا رسول الله، وما دولتهم؟ قال: «إذا كَانَ يَوْمَ القِيَامةِ قِيلَ لَهُم انْظُروا مَنْ أَطْعَمَكُمْ كِسْرَةً أَوْ سَقَاكُمْ شَرْبَةً أَوْ كَسَاكُمْ ثَوْبًا فَخُذُوا بِيَدِهِ ثُمَّ امْضُوا بِهِ إِلَى الجَنَّةِ»(١)، وقال ﷺ: «دَخَلْتُ الجَنَّةَ فَسَمِعْتُ حَرَكَةً أَمَامِي فَنَظَرْتُ فَإِذا بِلالٌ، وَنَظَرْتُ فِي أَعْلاهَا فَإِذا فُقَرَاءُ أُمَّتِي وَأَوْلادُهُمْ، وَنَظَرْتُ فِي أَسْفَلِهَا فَإِذا فِيهِ مِنَ الأَغْنِيَاءِ وَالنِّسَاءِ قَلِيلٌ؛ فَقلْتُ: يا رَبِّ ما شَأْنُهُمْ؟ قَالَ: أَمَّا النِّسَاءُ فَأَضَرَّ بِهُنَّ الأَحْمَرَانِ الذَّهَبُ وَالحَرِيرُ، وَأَمَّا الأَغْنِيَاءُ فَاشْتَغَلُوا بِطُولِ الحِسَابِ، وَتَفَقَدْتُ أَصْحَابِي فَلَم أَرَ عَبْدَ الرَّحْمنِ بْنَ عَوْفٍ، ثُمَّ جَاءَنِي بَعْدَ ذَلِكَ وَهُوَ يَبْكِي، فَقُلْتُ: مَا خَلَّفَكَ عَنِّي؟ قَالَ: يا رَسُولَ اللَّهِ وَاللَّهِ مَا وَصَلْتُ إِلَيْكَ حَتَّى لَقِيتُ المُشَيِّبَات وَظَنَنْتُ أَنِّي لا أَرَاكَ، فَقُلْتُ: وَلِمَ؟ قَالَ: كُنْتُ أُحَاسَبُ بِمَالِي»(٢).

فانظر إلى هذا وعبد الرحمن صاحب السابقة العظيمة مع رسول الله وهو من العشرة المخصوصين بأنهم من أهل الجنة(٣)، وهو من الأغنياء الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: «إلاّ مَنْ قَالَ بِالمَالِ هكَذَا وَهَكَذَا»(٤)، ومع هذا فقد استضر بالغنى إلى هذا الحدّ.

ودخل رسول الله ﷺ على رجل فقير فلم ير له شيئًا فقال: «لَوْ قُسِمَ نُورُ هذا عَلَى أَهْلِ الأَرْضِ لَوَسِعَهُمْ»(٥).

وقال ﷺ: «أَلا أُخْبِرُكُمْ بِمُلُوكِ أَهْلِ الجَنَّةِ؟ قالوا: بلى يا رسول الله قال: كُلُّ ضَعِيفٍ

كتاب الثواب من حديث أنس بإسناد ضعيف «يقول الله عز وجل يوم القيامة أدنوا مني أحبائي، فتقول الملائكة: ومن أحباؤك؟ فيقول: فقراء المسلمين، فيدنون منه فيقول: أما إني لم أزو الدنيا عنكم لهوان كان بكم علي ولكن أردت بذلك أن أضعف لكم كرامتي اليوم، فتمنوا علي ما شئتم اليوم... الحديث» دون آخر الحديث، وأما أول الحديث فرواه أبو نعيم في الحلية، وسيأتي في الحديث الذي بعده.

(١) موضوع: حديث «أكثروا معرفة الفقراء واتخذوا عندهم الأيادي فإن لهم دولة». أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث الحسين بن علي بسند ضعيف «اتخذوا عند الفقراء أيادي، فإن لهم دولة يوم القيامة، فإذا كان يوم القيامة نادى مناد: سيروا إلى الفقراء، فيعتذر إليهم كما يعتذر أحدكم إلى أخيه في الدنيا». [انظر ضعيف الجامع: ٩٤ مختصراً].

(٢) منكر جداً: حديث «دخلت الجنة فسمعت حركة أمامي، فنظرت فإذا بلال، ونظرت إلى أعلاها فإذا فقراء أمتي وأولادهم». أخرجه الطبراني من حديث أبي أمامة بسند ضعيف نحوه، وقصة بلال في الصحيح من طريق آخر. [الحديث انظر السلسلة الضعيفة: ٥٣٤٦، وأما قصة بلال فعند البخاري: ١١٤٩، ومسلم: ٢٤٥٨ عن أبي هريرة].

(٣) صحيح: حديث: إن عبد الرحمن بن عوف أحد العشرة المخصوصين بأنهم من أهل الجنة. رواه أصحاب السنن الأربعة من حديث سعيد بن زيد، قال الترمذي: حسن صحيح. [أبو داود: ٤٦٤٩، والترمذي: ٣٧٤٧، وابن ماجه: ١٣٤، وانظر السلسلة الصحيحة: ٨٧٥].

(٤) صحيح: حديث «إلا من قال بالمال هكذا وهكذا». متفق عليه من حديث أبي ذر في أثناء حديث تقدم. [البخاري: ٢٣٨٨، ومسلم: ٩٩٠].

(٥) حديث: دخل على رجل فقير ولم ير له شيئا فقال «لو قسم نور هذا على أهل الأرض لوسعهم». لم أجده.

مُسْتَضْعَفٍ أَغْبَرَ أَشْعَثَ ذِي طِمْرَيْنِ لا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لأَبَرَّهُ»[١].

وقال عمران بن حصين: كانت لي من رسول الله ﷺ منزلة وجاه، فقال: «يا عِمْرَانُ، إِنَّ لَكَ عِنْدَنا مَنْزِلَةً وَجَاهًا، فَهَلْ لَكَ في عِيَادَةِ فَاطِمَةَ بِنْت رَسُولِ اللَّهِ ؟» قلت نعم بأبي أنت وأمي يا رسول الله، فقام وقمت معه حتى وقف بباب فاطمة، فقرع الباب وقال: «السَّلامُ عَلَيْكُمْ أَأَدْخُلُ؟» فقالت: ادخل يا رسول الله. قال: «أَنَا وَمَنْ مَعِي؟» قالت: ومن معك يا رسول الله؟ قال: «عِمْرَانُ» فقالت فاطمة: والذي بعثك بالحق نبيًّا ما عليَّ إلا عباءة. قال: «اصْنَعِي بِها هكَذَا وَهكَذَا» وأشار بيده، فقالت: هذا جسدي قد واريته فكيف برأسي؟ فألقى إليها ملاءة كانت عليه خلقة فقال: «شدّي على رأسك» ثم أذنت له فدخل فقال: «السَّلامُ عَلَيْكُمْ يا ابْنَتَاهُ، كَيْفَ أَصْبَحْتِ؟» قالت: أصبحت والله وجعة وزادني وجعًا على ما بي أني لست أقدر على طعام آكله فقد أضر بي الجوع، فبكى رسول الله ﷺ وقال: «لا تَجْزَعِي يا ابْنَتَاهُ فَوَاللَّهِ ما ذُقْتُ طَعَامًا مُنْذُ ثَلاثٍ، وَإِنِّي لأَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ مِنْكِ، وَلَوْ سَأَلْتُ رَبِّي لأَطْعَمَنِي وَلكِن آثَرْتُ الآخِرَةَ عَلَى الدُّنْيَا» ثم ضرب بيده على منكبها وقال لها: «أَبْشِرِي فَوَاللَّهِ إِنَّكِ لَسيدةُ نِسَاءِ أَهْلِ الجَنَّةِ» قالت: فأين آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران؟ قال: «آسِيَةُ سَيِّدَةُ نِسَاءِ عَالمها، وَمَرْيَمَ سَيِّدَةُ نِسَاءِ عَالمها، وَأَنْتِ سَيِّدَةَ نِسَاءِ عَالمكِ، إِنَّكُنَّ فِي بُيُوتٍ مِنْ قَصَبٍ لا أَذَى فِيها وَلا صَخَبَ وَلا نَصَبَ» ثم قال لها: «اقْنَعِي بِابْن عَمِّكِ فَوَاللَّهِ لقد زوجتك سيدًا في الدنيا وسيدًا في الآخرة»[٢].

وروي عن علي كرم الله وجهه أنّ رسول الله ﷺ قال: «إِذا أَبْغَضَ النَّاسُ فُقَرَاءَهُمْ وَأَظْهَرُوا عَمَارَةَ الدُّنْيَا وَتَكَالَبُوا عَلَى جَمْعِ الدَّرَاهِمِ رَمَاهُم اللَّهُ بِأَرْبَعِ خِصَالٍ: بِالْقَحْطِ مِنَ الزَّمَانِ، وَالجَوْرِ مِنَ السُّلْطَانِ، وَالخِيَانَةِ مِنَ وَلاةِ الأَحْكَامِ، وَالشَّوْكَةِ مِنَ الأَعْدَاءِ»[٣].

وأما الآثار: فقد قال أبو الدرداء رضي الله عنه: ذو الدرهمين أشدّ حسبًا أو قال أشدّ حسابًا من ذي الدرهم.

وأرسل عمر رضي الله عنه إلى سعيد بن عامر بألف دينار، فجاء حزينًا كئيبًا فقالت امرأته: أحدث أمر؟ قال: أشدّ من ذلك، ثم قال: أريني درعك الخلق فشقه وجعله صررًا وفرقه، ثم قام

---

(١) حديث «ألا أخبركم بملوك أهل الجنة؟». [البخاري: ٤٩١٨، ومسلم: ٢٨٥٣] متفق عليه من حديث حارثة بن وهب مختصرا ولم يقل «ملوك» وقد تقدم، ولابن ماجه بسند جيد من حديث معاذ «ألا أخبركم عن ملوك الجنة... الحديث» [ابن ماجه: ٤١١٥، وانظر ضعيف الترغيب: ١٨٦٠] دون قوله «أغبر أشعث».

(٢) حديث عمران بن حصين: كانت لي من رسول الله ﷺ منزلة وجاه، فقال «يا عمران، إن لك عندنا منزلة وجاها». تقدم.

(٣) **منكر:** حديث «إذا أبغض الناس فقراءهم وأظهروا عمارة الدنيا». أخرجه أبو منصور الديلمي بإسناد فيه جهالة، وهو منكر. [انظر السلسلة الضعيفة: ١٥٢٨ بلفظ«علماءهم» بدلًا من «فقراءهم» ولم أقف عليه بلفظ «فقراءهم»].

يصلي ويبكي إلى الغداة، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يَدْخُلُ فُقَرَاءُ أُمَّتِي الجَنَّةَ قَبْلَ الأَغْنِيَاءِ بِخَمْسِمِائَةِ عَامٍ، حَتَّى إنَّ الرَّجُلَ مِنَ الأَغْنِيَاءِ يَدْخُلُ فِي غِمَارِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِيَدِهِ فَيُسْتَخْرَجُ» (١).

وقال أبو هريرة: ثلاثة يدخلون الجنة بغير حساب: رجل يريد أن يغسل ثوبه فلم يكن له خلق يلبسه، ورجل لم ينصب على مستوقد قدرين، ورجل دعا بشرابه فلا يقال له أيها تريد.

وقيل: جاء فقير إلى مجلس الثوري رحمه الله فقال له: تخطّ، لو كنت غنيًا لما قربتك، وكان الأغنياء من أصحابه يودون أنهم فقراء لكثرة تقريبه للفقراء وإعراضه عن الأغنياء. وقال المؤمل: ما رأيت الغني أذل منه في مجلس الثوري، ولا رأيت الفقير أعز منه في مجلس الثوري رحمه الله.

وقال بعض الحكماء: مسكين ابن آدم لو خاف من النار كما يخاف من الفقر لنجا منهما جميعًا، ولو رغب في الجنة كما يرغب في الغنى لفاز بهما جميعًا، ولو خاف الله في الباطن كما يخاف خلقه في الظاهر لسعد في الدارين جميعًا.

وقال ابن عباس: ملعون من أكرم بالغنى وأهان بالفقر.

وقال لقمان عليه السلام لابنه: لا تحقرنّ أحدًا لخلقان ثيابه فإن ربك وربه واحد.

وقال يحيى بن معاذ: حبك الفقراء من أخلاق المرسلين، وإيثارك مجالستهم من علامة الصالحين، وفرارك من صحبتهم من علامة المنافقين.

وفي الأخبار عن الكتب السالفة: أن الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه عليهم السلام. احذر أن أمقتك فتسقط من عيني فأصب الدنيا عليك صبًا.

ولقد كانت عائشة رضي الله عنها تفرّق مائة ألف درهم في يوم واحد يوجهها إليها معاوية وابن عامر وغيرهما، وإنّ درعها لمرقوع، وتقول لها الجارية: لو اشتريت لك بدرهم لحمًا تفطرين عليه وكانت صائمة، فقالت: لو ذكرتيني لفعلت، وكان قد أوصاها رسول الله ﷺ وقال: «إنْ أَرَدْتِ اللُّحُوقَ بِي فَعَلَيْكِ بِعَيْشِ الفُقَرَاءِ، وَإِيَّاكِ وَمُجَالَسَةَ الأَغْنِيَاءِ، وَلا تَنْزَعِي دِرْعَكِ حَتَّى تَرْقَعِيه» (٢).

وجاء رجل إلى إبراهيم بن أدهم بعشرة آلاف درهم، فأبى عليه أن يقبلها، فألح عليه الرجل،

---

(١) حديث سعيد بن عامر «يدخل فقراء أمتي الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام». وفي أوله قصة أن عمر بعث إلى سعيد بألف دينار فجاء كئيبا حزينا وفرقها، وقد روى أحمد في الزهد القصة إلا أنه قال «تسعين عاما» وفي إسناده يزيد بن أبي زياد تكلم فيه، وفي رواية له «بأربعين سنة» وأما دخولهم قبلهم بخمسمائة عام فهو عند الترمذي من حديث أبي هريرة وصححه وقد تقدم. [حديث سعيد بن عامر، وحديث أبي هريرة عند الترمذي: ٢٣٥١، وانظر صحيح الترغيب: ٣١٨٩].

(٢) ضعيف جداً: حديث: قال لعائشة «إن أردت اللحوق بي فعليك بعيش الفقراء». أخرجه الترمذي وقال غريب، والحاكم وصححه نحوا من حديثها، وقد تقدم. [الترمذي: ١٧٨٠، وانظر ضعيف الترغيب: ١٨٧٨].

فقال له إبراهيم: أتريد أن أمحو اسمي من ديوان الفقراء بعشرة آلاف درهم؟ لا أفعل ذلك أبدًا. رضي الله عنه.

بيان فضيلة خصوص الفقراء من الراضين والقانعين والصادقين:

قال رسول الله ﷺ: «طُوبى لِمَنْ هُدِيَ إِلَى الإِسْلاَمِ وَكَانَ عَيْشُهُ كَفَافًا وقَنِعَ بِهِ» (١) وقال ﷺ: «يا مَعْشَرَ الفُقَرَاءِ أَعْطُوا اللَّهَ الرِّضَا مِنْ قُلُوبِكُمْ تظْفَرُوا بِثَوَابِ فَقْرِكُمْ وإِلاَّ فَلاَ» (٢)، فالأوّل القانع وهذا الراضي، ويكاد يشعر هذا بمفهومه: أنّ الحريص لا ثواب له على فقره ولكن العمومات الواردة في فضل الفقر تدل على أنّ له ثوابًا كما سيأتي تحقيقه، فلعل المراد بعدم الرضا هو الكراهة لفعل الله في حبس الدنيا عنه، وربّ راغب في المال لا يخطر بقلبه إنكار على الله تعالى ولا كراهة في فعله، فتلك الكراهة هي التي تحبط ثواب الفقر.

وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ لِكُل شَيْءٍ مِفْتَاحًا وَمِفْتَاحُ الجَنَّةِ حُبُّ المَسَاكِينِ وَالفُقَرَاءِ لِصَبْرِهِمْ، هُمْ جُلَسَاءُ اللَّهِ تَعَالَى يَوْمَ القِيَامَةِ» (٣).

وروي عن علي كرم الله وجهه عن النبي ﷺ أنه قال: «أَحَبُّ العِبَادِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى الفَقِيرُ القَانِعُ بِرِزْقِهِ الرَّاضِي عَنِ اللَّهِ تَعَالَى» (٤). وقال ﷺ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ قُوتَ آلِ مُحَمَّدٍ كَفَافًا» (٥). وقال ﷺ: «ما مِنْ أَحَدٍ غَنِي ولا فقِير إِلاَّ وَدَّ يَوْمَ القِيَامَةِ أَنَّه كَانَ أُوْتِيَ قُوتًا فِي الدُّنْيَا» (٦)، وأوحى الله تعالى إلى إسماعيل عليه السلام: اطلبني عند المنكسرة قلوبهم. قال: ومن هم؟ قال: الفقراء الصادقون. وقال ﷺ: «لاَ أَحَدَ أَفْضَلُ مِنَ الفَقِيرِ إِذَا كَانَ رَاضِيًا» (٧)، وقال ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ القِيَامَةِ: أَيْنَ صَفْوَتِي مِنْ خَلْقِي؟ فَتَقُولُ المَلاَئِكَةُ: وَمَنْ هُمْ يَا رَبَّنَا؟ فَيَقُولُ: فُقَرَاءُ المُسْلِمِينَ القَانِعُونَ بِعَطَائِي الرَّاضُونَ بِقَدَرِي، أَدْخِلُوهُمُ الجَنَّةَ. فَيَدْخُلُونَهَا وَيَأْكُلُونَ

(١) صحيح: حديث «طوبى لمن هدي للإسلام وكان عيشه كفافا وقنع به». رواه مسلم، وقد تقدم. [مسلم: ١٠٥٤].

(٢) حديث «يا معشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم وإلا فلا». رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة، وهو ضعيف جدا، فيه أحمد بن الحسن بن أبان المصري متهم بالكذب ووضع الحديث.

(٣) موضوع: حديث «إن لكل شيء مفتاحا ومفتاح الجنة حب المساكين». رواه الدارقطني في غرائب مالك وأبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق، وابن عدي في الكامل، وابن حبان في الضعفاء من حديث ابن عمر. [انظر السلسلة الضعيفة: ١٣٩٤].

(٤) ضعيف: حديث «أحب العباد إلى الله الفقير القانع برزقه الراضي عن الله». لم أجده بهذا اللفظ، وتقدم عند ابن ماجه حديث «إن الله يحب الفقير المتعفف». [ابن ماجه: ٤١٢١، وانظر السلسلة الضعيفة: ٥١].

(٥) صحيح: حديث «اللهم اجعل رزق آل محمد كفافا». أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة، وهو متفق عليه بلفظ «قوتا» وقد تقدم. [بلفظ «كفافاً» عند مسلم: ١٠٥٥، وبلفظ «قوتاً» عند البخاري: ٦٤٦٠، ومسلم: ١٠٥٥].

(٦) ضعيف جداً: حديث «ما من أحد غني ولا فقير إلا ود يوم القيامة أنه كان أوتي قوتا في الدنيا». أخرجه ابن ماجه من حديث أنس، وقد تقدم. [ابن ماجه: ٤١٤٠، وانظر ضعيف الترغيب: ١٨٨١].

(٧) حديث «لا أحد أفضل من الفقير إذا كان راضيا». لم أجده بهذا اللفظ.

وَيَشْرَبُونَ وَالنَّاسَ فِي الحِسَابَ يَتَرَدَّدُونَ»[١] ، فهذا في القانع والراضي. وأما الزاهد فسنذكر فضله في الشطر الثاني من الكتاب إن شاء الله تعالى.

وأما الآثار : في الرضا والقناعة فكثيرة، ولا يخفى أنّ القناعة يضادها الطمع. وقد قال عمر رضي الله تعالى عنه: إن الطمع فقر واليأس غنى، وإنه من يئس عما في أيدي الناس وقنع استغنى عنهم.

وقال أبو مسعود رضي الله تعالى عنه : ما من يوم إلا وملك ينادي من تحت العرش: يا ابن آدم! قليل يكفيك خير من كثير يطغيك.

وقال أبو الدرداء رضي الله تعالى عنه: ما من أحد إلا وفي عقله نقص، وذلك أنه إذا أتته الدنيا بالزيادة ظل فرحًا مسرورًا والليل والنهار دائبان في هدم عمره ثم لا يحزنه ذلك، ويح ابن آدم ما ينفع مال يزيد وعمر ينقص.

وقيل لبعض الحكماء : ما الغنى؟ قال: قلة تمنيك ورضاك بما يكفيك.

وقيل : كان إبراهيم بن أدهم من أهل النعم بخراسان؟ فبينما هو يشرف من قصر له ذات يوم إذ نظر إلى رجل في فناء القصر وفي يده رغيف يأكله، فلما أكل نام، فقال لبعض غلمانه: إذا قام فجئني به، فلما قام جاء به إليه، فقال إبراهيم: أيها الرجل أكلت الرغيف وأنت جائع؟ قال: نعم. قال: فشبعت؟ قال: نعم، قال: ثم نمت طيبًا؟ قال: نعم. فقال إبراهيم في نفسه، فما أصنع أنا بالدنيا والنفس تقنع بهذا القدر.

ومرَّ رجل بعامر بن عبد القيس وهو يأكل ملحًا وبقلًا، فقال له: يا عبد الله أرضيت من الدنيا بهذا؟ فقال: ألا أدلك على من رضي بشر من هذا؟ قال: بلى. قال: من رضي بالدنيا عوضًا عن الآخرة.

وكان محمد بن واسع رحمة الله عليه يخرج خبزًا يابسًا فيبله بالماء ويأكله بالملح ويقول: من رضي من الدنيا بهذا لم يحتج إلى أحد.

وقال الحسن رحمه الله : لعن الله أقوامًا أقسم لهم الله تعالى ثم لم يصدّقوه، ثم قرأ: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢-٢٣] .

وكان أبو ذرّ رضي الله عنه يومًا جالسًا في الناس فأتته امرأته فقالت له: أتجلس بين هؤلاء؟ والله ما في البيت هفة ولا سفة، فقال: يا هذه، إن بين أيدينا عقبة كئودًا لا ينجو منها إلا كل مخف، فرجعت وهي راضية.

وقال ذو النون رحمه الله : أقرب الناس إلى الكفر ذو فاقة لا صبر له.

---

(١) حديث «يقول الله تعالى يوم القيامة: أين صفوتي من خلقي؟». رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس.

وقيل لبعض الحكماء: ما مالك؟ فقال: التجمل في الظاهر والقصد في الباطن واليأس مما في أيدي الناس.

وروي أنّ الله عز وجل قال في بعض الكتب السالفة المنزلة: يا ابن آدم، لو كانت الدنيا كلها لك لم يكن لك منها إلا القوت، فإذا أنا أعطيتك منها القوت وجعلت حسابها على غيرك فأنا محسن إليك.

وقد قيل في القناعة:

اضرعْ إلى الله لا تضرع إلى الناس ... واقنعْ بيأسٍ فإن العزَّ في الياسِ
واستغنِ عن كل ذي قربى وذي رحمٍ ... إنَّ الغني من استغنى عن النَّاسِ

وقد قيل في هذا المعنى أيضًا:

يا جامعًا مانعًا والدهر يرمقه ... مقدرًا أي باب منه يغلقُه
مفكرًا كيف تأتيه منيته ... أغاديًا أم بها يسري فتطرقُه
جمعت مالًا فقل لي هل جمعت له ... يا جامعَ المالِ أيامًا تفرّقُه
المال عندك مخزونٌ لوارثهِ ... ما المالُ مالك إلا يوم تنفقُه
أرفه ببال فتى يغدو على ثقة ... أنّ الذي قسم الأرزاق يرزقُه
فالعِرْضُ منه مصون ما يدنسه ... والوجهُ منه جديدٌ ليس يخلقه
إن القناعةَ من يحلل بساحتها ... لم يبقَ في ظلها هَمٌّ يؤرّقُه

بيان فضيلة الفقر على الغنى:

اعلم أنّ الناس قد اختلفوا في هذا، فذهب الجنيد والخوّاص والأكثرون إلى تفضيل الفقر. وقال ابن عطاء: الغني الشاكر القائم بحقه أفضل من الفقير الصابر. **ويقال إن الجنيد دعا على ابن عطاء لمخالفته إياه في هذه فأصابته محنة**، وقد ذكرنا ذلك في كتاب الصبر وبينا أوجه التفاوت بين الصبر والشكر، ومهدنا سبيل طلب الفضيلة في الأعمال والأحوال وأنّ ذلك لا يمكن إلا بتفصيل.

فأما الفقر والغنى إذا أخذا مطلقًا لم يسترب من قرأ الأخبار والآثار **في تفضيل الفقر، ولا بدّ فيه من تفصيل فنقول إنما يتصوّر الشك في مقامين.**

أحدهما: فقير صابر ليس بحريص على الطلب، بل هو قانع أو راض بالإضافة إلى غني منفق ماله في الخيرات ليس حريصًا على إمساك المال.

والثاني: فقير حريص مع غني حريص، إذ لا يخفى أنّ الفقير القانع أفضل من الغني الحريص الممسك، وأن الغني المنفق ماله في الخيرات أفضل من الفقير الحريص، **أما الأوّل** فربما يظن أن الغني أفضل من الفقير؛ لأنهما تساويا في ضعف الحرص على المال، والغني

متقرب بالصدقات والخيرات والفقير عاجز عنه، وهذا هو الذي ظنه ابن عطاء فيما نحسبه، فأما الغني المتمتع بالمال وإن كان في مباح فلا يتصورّ أن يفضل على الفقير القانع، وقد يشهد له ما روي في الخبر: أنّ الفقراء شكوا إلى رسول الله ﷺ سبق الأغنياء بالخيرات والصدقات والحج والجهاد، فعلمهم كلمات في التسبيح، وذكر لهم أنهم ينالون بها فوق ما ناله الأغنياء، فتعلم الأغنياء ذلك فكانوا يقولونه، فعاد الفقراء إلى رسول الله فأخبروه، فقال عليه السلام: «ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ» (١).

وقد استشهد ابن عطاء أيضًا لما سئل عن ذلك فقال: الغني أفضل لأنه وصف الحق، أما دليله الأوّل ففيه نظر؛ لأنّ الخبر قد ورد مفصلًا تفصيلًا يدل على خلاف ذلك: وهو أنّ ثواب الفقير في التسبيح يزيد على ثواب الغني، وأنّ فوزهم بذلك الثواب فضل الله يؤتيه من يشاء، فقد روى زيد بن أسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: بعث الفقراء رسولًا إلى رسول الله ﷺ فقال: إني رسول الفقراء إليك؛ فقال: «مَرْحَبًا بِكَ وَبِمَنْ جِئْتَ مِنْ عِنْدِهِمْ قَوْمٌ أَحِبُّهُمْ» قال: قالوا: يا رسول الله إنّ الأغنياء ذهبوا بالخير يحجون ولا نقدر عليه، ويعتمرون ولا نقدر عليه، وإذا مرضوا بعثوا بفضل أموالهم ذخيرة لهم؛ فقال النبي ﷺ: «بَلِّغْ عَنِّي الْفُقَرَاءَ أَنَّ لِمَنْ صَبَرَ وَاحْتَسَبَ مِنْكُمْ ثَلاثَ خِصَالٍ لَيْسَتْ لِلأَغْنِيَاءِ. أَما خَصْلَةٌ وَاحِدَةٌ: فَإِنَّ فِي الْجَنَّةِ غُرَفًا يَنْظُرُ إِلَيْهَا أَهْلُ الْجَنَّةِ كَمَا يَنْظُرُ أَهْلُ الأَرْضِ إِلَى نُجُومِ السَّمَاءِ، لا يَدْخُلُها إِلاَّ نَبِيٌّ فَقِيرٌ، أَوْ شَهِيدٌ فَقِيرٌ، أَوْ مُؤْمِنٌ فَقِيرٌ، وَالثَّانِيَةُ: يَدْخُلُ الْفُقَرَاءُ الْجَنَّةَ قَبْلَ الأَغْنِيَاءِ بِنِصْفِ يَوْمٍ وَهُوَ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَالثَّالِثَةُ: إِذَا قَالَ الْغَنِيُّ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلا إِلهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَقَالَ الْفَقِيرُ مِثْلَ ذلِكَ لَمْ يَلْحَقِ الْغَنِيُّ بِالْفَقِيرِ وَلَوْ أَنْفَقَ فِيها عَشَرَةَ آلافِ دِرْهَمٍ، وَكَذلِكَ أَعْمَالُ الْبِرِّ كُلُّها» فرجع إليهم فأخبرهم بما قال رسول الله ، فقالوا: رضينا رضينا (٢) فهذا يدل على أنّ قوله «ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ» أي مزيد ثواب الفقراء على ذكرهم.

وأما قوله: إنّ الغني وصف الحق، فقد أجابه بعض الشيوخ فقال: أترى أنّ الله تعالى غني بالأسباب والأعراض، فانقطع ولم ينطق، وأجاب آخرون فقالوا: إنّ التكبر من صفات الحق فينبغي أن يكون أفضل من التواضع، ثم قالوا: بل هذا يدل على أنّ الفقر أفضل لأن صفات

---

(١) صحيح: حديث: شكى الفقراء إلى رسول الله ﷺ سبق الأغنياء بالخيرات والصدقات». متفق عليه من حديث أبي هريرة نحوه. [البخاري: ٨٤٣، ومسلم: ٥٩٥].

(٢) ضعيف: حديث زيد بن أسلم عن أنس: بعث الفقراء رسولا إلى رسول الله ﷺ فقال: إني رسول الفقراء إليك، فقال «مرحبا بك وبمن جئت من عندهم قوم أحبهم». لم أجده هكذا بهذا السياق، والمعروف في هذا المعنى ما رواه ابن ماجه من حديث ابن عمر: اشتكى فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ ما فضل الله به عليهم أغنياءهم، فقال «يا معشر الفقراء ألا أبشركم إن فقراء المؤمنين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم خمسمائة عام» وإسناده ضعيف. [ابن ماجه: ٤١٢٤، وانظر ضعيف ابن ماجه].

العبودية فضل للعبد كالخوف والرجاء، وصفات الربوبية لا ينبغي أن ينازع فيها، ولذلك قال تعالى فيما روى عنه نبينا ﷺ: «الكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا قَصَمْتُهُ» (١).

وقال سهل: حب العز والبقاء شرك في الربوبية ومنازعة فيها لأنهما من صفات الرب تعالى؛ فمن هذا الجنس تكلموا في تفضيل الغنى والفقر، وحاصل ذلك تعلق بعمومات تقبل التأويلات وبكلمات قاصرة لا تبعد مناقضتها، إذ كما يناقض قول من فضل الغني بأنه صفة الحق بالتكبر، فكذلك يناقض قول من ذم الغني لأنه وصف للعبد بالعلم والمعرفة فإنه وصف الرب تعالى، والجهل والغفلة وصف العبد، وليس لأحد أن يفضل الغفلة على العلم، فكشف الغطاء عن هذا هو ما ذكرناه في كتاب الصبر: وهو أن ما لا يراد لعينه بل يراد لغيره فينبغي أن يضاف إلى مقصوده، إذ به يظهر فضله، والدنيا ليست محذورة لعينها ولكن لكونها عائقة عن الوصول إلى الله تعالى، ولا الفقر مطلوبًا لعينه لكن لأنّ فيه فقد العائق عن الله تعالى وعدم الشاغل عنه، وكم من غني لم يشغله الغنى عن الله عز وجل مثل سليمان عليه السلام وعثمان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنهما، وكم من فقير شغله الفقر وصرفه عن المقصد، وغاية المقصد في الدنيا هو حب الله تعالى والأنس به، ولا يكون ذلك إلا بعد معرفته، وسلوك سبيل المعرفة مع الشواغل غير ممكن، والفقر قد يكون من الشواغل كما أن الغنى قد يكون من الشواغل، وإنما الشاغل على التحقيق حب الدنيا، إذ لا يجتمع معه حب الله تعالى في القلب، والمحب للشيء مشغول به سواء كان في فراقه أو في وصاله، وربما يكون شغله في الفراق أكثر، وربما يكون شغله في الوصال أكثر، والدنيا معشوقة الغافلين، المحروم منها مشغول بطلبها، والقادر عليها مشغول بحفظها والتمتع بها؛ فإذن إن فرضت فارغين عن حب المال بحيث صار المال في حقهما كالماء استوى الفاقد والواجد، إذ كل واحد غير متمتع إلا بقدر الحاجة، ووجود قدر الحاجة أفضل من فقده، إذ الجائع يسلك سبيل الموت لا سبيل المعرفة. وإن أخذت الأمر باعتبار الأكبر فالفقير عن الخطر أبعد؛ إذ فتنة السراء أشدّ من فتنة الضراء، ومن العصمة أن لا يقدر، ولذلك قال الصحابة رضي الله تعالى عنهم: بلينا بفتنة الضراء فصبرنا، وبلينا بفتنة السراء فلم نصبر. وهذه خلقة الآدميين كلهم إلا الشاذ الفذ الذي لا يوجد في الأعصار الكثيرة إلا نادرًا.

ولما كان خطاب الشرع مع الكل لا مع ذلك النادر - والضراء أصلح للكل دون ذلك النادر - زجر الشرع عن الغنى وذمه، وفضل الفقر ومدحه، حتى قال المسيح عليه السلام: لا

---

(١) صحيح: حديث «قال الله تعالى: الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدا منهما قصمته». تقدم في العلم وغيره. [مسلم: ٢٦٢٠].

تنظروا إلى أموال أهل الدنيا فإن بريق أموالهم يذهب بنور إيمانكم.

وقال بعض العلماء: تقليب الأموال يمص حلاوة الإيمان.

وفي الخبر: «إنّ لكل أمة عجلًا وعجل هذه الأمة الدينار والدرهم» (١)، وكان أصل عجل قوم موسى من حلية الذهب والفضة أيضًا، واستواء المال والماء، والذهب والحجر إنما يتصوّر للأنبياء عليهم السلام والأولياء؛ ثم يتم لهم ذلك بعد فضل الله تعالى بطول المجاهدة، إذ كان النبي ﷺ يقول للدنيا: «إِلَيْكِ عَنِّي» (٢). إذ كانت تتمثل له بزينتها. وكان علي كرم الله وجهه يقول: يا صفراء غرّي غيري، ويا بيضاء غري غيري، وذلك لاستشعاره في نفسه ظهور مبادىء الاغترار بها لولا أن رأى برهان ربه، وذلك هو الغنى المطلق، إذ قال عليه الصلاة والسلام: «لَيْسَ الغِنَى مِنْ كَثْرَةِ العَرَضِ إِنَّما الغِنَى غِنَى النَّفْسِ» (٣)، وإذا كان ذلك بعيدًا فإذن الأصلح لكافة الخلق فقد المال وإن تصدّقوا به وصرفوه إلى الخيرات، لأنهم لا ينفكون في القدرة على المال عن أنس بالدنيا وتمتع بالقدرة عليها واستشعار راحة في بذلها، وكل ذلك يورث الأنس بهذا العالم، وبقدر ما يأنس العبد بالدنيا يستوحش من الآخرة؟ وبقدر ما يأنس بصفة من صفاته سوى صفة المعرفة بالله يستوحش من الله ومن حبه، ومهما انقطعت أسباب الأنس بالدنيا تجافى القلب عن الدنيا وزهرتها، والقلب إذا تجافى عما سوى الله تعالى وكان مؤمنًا بالله انصرف لا محالة إلى الله، إذ لا يتصوّر قلب فارغ، وليس في الوجود إلا الله تعالى وغيره، فمن أقبل على غيره فقد تجافى عنه ومن أقبل عليه تجافى عن غيره، ويكون إقباله على أحدهما بقدر تجافيه عن الآخر، وقربه من أحدهما بقدر بعده من الآخر، ومثلهما مثل المشرق والمغرب فإنهما جهتان، فالمتردد بينهما يقدر ما يقرب من أحدهما يبعد عن الآخر، بل عين القرب من أحدهما هو عين البعد من الآخر، فعين حب الدنيا هو عين بغض الله تعالى، فينبغي أن يكون مطمح نظر العارف قلبه في عزوبه عن الدنيا وأنسه بها، فإذن فضل الفقير والغني بحسب تعلق قلبيهما بالمال فقط، فإن تساويا فيه تساوت درجتهما، إلا أن هذا مزلة قدم وموضع غرور، فإنّ الغني ربما يظنّ أنه منقطع القلب عن المال، ويكون حبه دفينًا في باطنه وهو لا يشعر به، وإنما يشعر به إذا فقده، فليجرّب نفسه بتفريقه أو إذا سرق منه، فإن وجد لقلبه إليه التفاتًا فليعلم أنه كان مغرورًا، فكم من رجل باع سرية له لظنه أنه منقطع القلب عنها فبعد لزوم البيع وتسليم الجارية اشتعلت من قلبه النار التي كانت مستكنة فيه، فتحقق إذن أنه كان

(١) حديث «لكل أمة عجل، وعجل هذه الأمة الدينار والدرهم». رواه أبو منصور الديلمي من طريق أبي عبد الرحمن السلمي من حديث حذيفة بإسناد فيه جهالة.

(٢) **ضعيف**: حديث: كان يقول للدنيا «إليك عني». رواه الحاكم مع اختلاف. وقد تقدم. [**انظر ضعيف الترغيب: ١٩١٧**].

(٣) **صحيح**: حديث «ليس الغني عن كثرة العرض إنما الغني غني النفس». متفق عليه من حديث أبي هريرة، وقد تقدم. [**البخاري: ٦٤٤٦، ومسلم: ١٠٥١**].

مغرورًا، وأنّ العشق كان مستكنًّا في الفؤاد استكنان النار تحت الرماد، وهذا حال كل الأغنياء إلا الأنبياء والأولياء، وإذا كان ذلك محالًا أو بعيدًا فلنطلق القول بأنّ الفقر أصلح لكافة الخلق وأفضل؛ لأنّ علاقة الفقير وأنسه بالدنيا أضعف وبقدر ضعف علاقته يتضاعف ثواب تسبيحاته وعباداته، فإنّ حركات اللسان ليست مرادة لأعيانها بل ليتأكد بها الأنس بالمذكور، ولا يكون تأثيرها في إثارة الأنس في قلب فارغ من غير المذكور كتأثيرها في قلب مشغول، ولذلك قال بعض السلف: مثل من تعبد وهو في طلب الدنيا مثل من يطفىء النار بالحلفاء ومثل من يغسل يده من الغمر بالسمك.

وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله تعالى: تنفس فقير دون شهوة لا يقدر عليها، أفضل من عبادة غني ألف عام.

وعن الضحاك قال: من دخل السوق فرأى شيئًا يشتهيه فصبر واحتسب، كان خيرًا له من ألف دينار ينفقها كلها في سبيل الله تعالى.

وقال رجل لبشر بن الحارث رحمه الله: ادع الله لي فقد أضرّ بي العيال فقال: إذا قال لك عيالك ليس عندنا دقيق ولا خبز فادع الله لي في ذلك الوقت، فإنّ دعاءك أفضل من دعائي. وكان يقول: مثل الغني المتعبد مثل روضة على مزبلة، ومثل الفقير المتعبد مثل عقد الجوهر في جيد الحسناء. وقد كانوا يكرهون سماع علم المعرفة من الأغنياء. وقد قال أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه: اللهم إني أسألك الذل عند النصف من نفسي، والزهد فيما جاوز الكفاف. وإذا كان مثل الصدّيق رضي الله عنه في كماله يحذر من الدنيا ووجودها فكيف يشك في أنّ فقد المال أصلح من وجوده هذا، مع أن أحسن أحوال الغني أن يأخذ حلالًا وينفق طيبًا، ومع ذلك فيطول حسابه في عرصات القيامة ويطول انتظاره، ومن نوقش الحساب فقد عذب، ولهذا تأخر عبد الرحمن بن عوف عن الجنة إذ كان مشغولًا بالحساب كما رآه رسول الله ﷺ، ولهذا قال أبو الدرداء رضي الله عنه: ما أحب أنّ لي حانوتًا على باب المسجد ولا تخطئني فيه صلاة وذكر وأربح، كل يوم خمسين دينارًا وأتصدّق بها في سبيل الله تعالى. قيل: وما تكره؟ قال: سوء الحساب، ولذلك قال سفيان رحمه الله: اختار الفقراء ثلاثة أشياء، واختار الأغنياء ثلاثة أشياء.

اختار الفقراء راحة النفس وفراغ القلب وخفة الحساب، واختار الأغنياء تعب النفس وشغل القلب وشدّة الحساب. وما ذكره ابن عطاء من أن الغنى وصف الحق فهو بذلك أفضل فهو صحيح، ولكن إذا كان العبد غنيًّا عن وجود المال وعدمه جميعًا بأن يستوي عنده كلاهما، فأما إذا كان غنيًّا بوجوده ومفتقرًا إلى بقائه فلا يضاهي غناه غنى الله تعالى؛ لأن الله تعالى غني بذاته لا بما يتصوّر زواله والمال يتصوّر زواله بأن يسرق، وما ذكر من الرد عليه بأن الله ليس غنيًّا بالأعراض والأسباب صحيح في ذم غني يريد بقاء المال، وما ذكر من أن صفات الحق لا

تليق بالعبد غير صحيح، بل العلم من صفاته وهو أفضل شيء للعبد، بل منتهى العبد أن يتخلق بأخلاق الله تعالى، وقد سمعت بعض المشايخ يقول: إن سالك الطريق إلى الله تعالى قبل أن يقطع الطريق تصير الأسماء التسعة والتسعون أوصافًا له: أي يكون له من كل واحد نصيب، وأما التكبر فلا يليق بالعبد، فإن التكبر على من لا يستحق التكبر عليه ليس من صفات الله تعالى، وأما التكبر على من يستحقه كتكبر المؤمن على الكافر وتكبر العالم على الجاهل والمطيع على العاصي فيليق به. نعم قد يراد بالتكبر الزهو والصلف والإيذاء وليس ذلك من وصف الله تعالى، وإنما وصف الله تعالى أنه أكبر من كل شيء وأنه يعلم أنه كذلك، والعبد مأمور به بأنه يطلب أعلى المراتب إن قدر عليه، ولكن بالاستحقاق كما هو حقه لا بالباطل والتلبيس، فعلى العبد أن يعلم أن المؤمن أكبر من الكافر، والمطيع أكبر من العاصي، والعالم أكبر من الجاهل، والإنسان أكبر من البهيمة والجماد والنبات، وأقرب إلى الله تعالى منها فلو رأى نفسه بهذه الصفة رؤية محققة لا شك فيها لكانت صفة التكبر حاصلة له ولائقة به وفضيلة في حقه، إلا أنه لا سبيل له إلى معرفته فإن ذلك موقوف على الخاتمة، وليس يدري الخاتمة كيف تكون وكيف تتفق؟ فلجهله بذلك وجب أن لا يعتقد لنفسه رتبة فوق رتبة الكافر؛ إذ ربما يختم للكافر بالإيمان، وقد يختم له بالكفر، فلم يكن ذلك لائقًا به لقصور علمه عن معرفة العاقبة ولما تصوّر أن يعلم الشيء على ما هو به كان العلم كمالًا في حقه لأنه في صفات الله تعالى، ولما كانت معرفة بعض الأشياء قد تضره صار ذلك العلم نقصانًا في حقه إذ ليس من أوصاف الله تعالى علم يضره، فمعرفة الأمور التي لا ضرر فيها هي التي تتصوّر في العبد من صفات الله تعالى، فلا جرم هو منتهى الفضيلة وبه فضل الأنبياء والأولياء والعلماء، فإذن لو استوى عنده وجود المال وعدمه فهذا نوع من الغنى يضاهي بوجه من الوجوه الغنى الذي يوصف به الله سبحانه وتعالى فهو فضيلة، أما الغني بوجود المال فلا فضيلة فيه أصلًا، فهذا بيان نسبة حال الفقير القانع إلى حال الغني الشاكر.

ولنفرض هذا في شخص واحد هو طالب للمال وساع فيه وفاقد له ثم وجده، فله حالة الفقد وحالة الوجود، فأي حالتيه أفضل؟ فنقول: ننظر فإن كان مطلوبه ما لا بدّ منه في المعيشة وكان قصده أن يسلك سبيل الدين ويستعين به عليه فحال الوجود أفضل، لأنّ الفقر يشغله بالطلب، وطالب القوت لا يقدر على الفكر والذكر إلا قدرة مدخولة بشغل؛ والمكفي هو القادر، ولذلك قال ﷺ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ قُوتَ آلِ مُحَمَّدٍ كَفَافًا» وقال ﷺ: «كاد الفقر أن يكون كفرًا» أي الفقر مع الاضطرار فيما لا بدّ منه، وإن كان المجلوب فوق الحاجة أو كان المطلوب قدر الحاجة ولكن لم يكن المقصود الاستعانة به على سلوك سبيل الدين؛ فحالة الفقر أفضل وأصلح، لأنهما استويا في الحرص وحب المال، واستويا في أنّ كل واحد منهما ليس يقصد به الاستعانة على طريق الدين، واستويا في أن كل واحد منهما ليس يتعرّض

لمعصية بسبب الفقر والغنى؛ ولكن افترقا في أنّ الواجد يأنس بما وجده فيتأكد حبه في قلبه ويطمئن إلى الدنيا، والفاقد المضطر يتجافى قلبه عن الدنيا وتكون الدنيا عنده كالسجن الذي يبغي الخلاص منه، ومهما استوت الأمور كلها وخرج من الدنيا رجلان أحدهما أشدّ ركونًا إلى الدنيا؛ فحاله أشدّ لا محالة؛ إذ يلتفت قلبه إلى الدنيا ويستوحش من الآخرة بقدر تأكد أنسه بالدنيا، وقد قال ﷺ: «إِنَّ رُوحَ القُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي: أَحْبِبْ مَنْ أَحْبَبْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ» [1]، وهذا تنبيه على أن فراق المحبوب شديد، فينبغي أن تحب من لا يفارقك وهو الله تعالى، ولا تحب ما يفارقك وهو الدنيا، فإنك إذا أحببت الدنيا كرهت لقاء الله تعالى، فيكون قدومك بالموت على ما تكرهه، وفراقك لما تحبه؛ وكل من فارق محبوبًا فيكون أذاه في فراقه بقدر حبه وقد أنسه وأنس الواحد للدنيا القادر عليها أكثر من أنس الفاقد لها وإن كان حريصًا عليها، فإذن قد انكشف بهذا التحقيق أن الفقر هو الأشرف والأفضل والأصلح لكافة الخلق إلا في موضعين:

أحدهما: غني مثل غنى عائشة رضي الله عنها يستوي عنده الوجود والعدم، فيكون الوجود مزيدًا له؛ إذ يستفيد به أدعية الفقراء والمساكين وجمع همهم.

والثاني: الفقر عن مقدار الضرورة فإن ذلك يكاد أن يكون كفرًا، ولا خير فيه بوجه من الوجوه إلا إذا كان وجوده يبقي حياته ثم يستعين بقوّته وحياته على الكفر والمعاصي؛ ولو مات جوعًا لكانت معاصيه أقل؛ فالأصلح له أن يموت جوعًا ولا يجد ما يضطرّ إليه أيضًا، فهذا تفصيل القول في الغنى والفقر. ويبقى النظر في فقير حريص متكالب على طلب المال ليس له هم سواه، وفي غني دونه في الحرص على حفظ المال، ولم يكن تفجعه بفقد المال لو فقده كتفجع الفقير بفقره، فهذا في محل النظر، والأظهر أن بعدهما عن الله تعالى بقدر قوّة تفجعهما لفقد المال وقربهما بقدر ضعف تفجعهما بفقده؛ والعلم عند الله تعالى فيه.

بيان آداب الفقير في فقره:

اعلم أنّ للفقير آدابًا في باطنه وظاهره ومخالطته وأفعاله ينبغي أن يراعيها.

فأما أدب باطنه: فأن لا يكون فيه كراهية لما ابتلاه الله تعالى به من الفقر، أعني أنه لا يكون كارهًا فعل الله تعالى من حيث إنه فعله ــ وإن كان كارهًا للفقر ــ كالمحجوم يكون كارهًا للحجامة لتألمه بها ولا يكون كارهًا فعل الحجام ولا كارهًا للحجام، بل ربما يتقلد منه منة، فهذا أقل درجاته وهو واجب، ونقيضه حرام ومحبط ثواب الفقر، وهو معنى قوله عليه السلام: «يا مَعْشَرَ الفُقَرَاءِ أَعْطُوا اللَّهَ الرِّضَا مِنْ قُلُوبِكُمْ تَظْفَرُوا بِثَوَابِ فَقْرِكُمْ وَإِلاَّ فَلاَ»

---

(١) **حسن لغيره**: حديث «إن روح القدس نفث في روعي: أحب من أحببت فإنك مفارقه تقدم. [انظر صحيح الترغيب: ٦٢٧].

وأرفع من هذا أن لا يكون كارهًا للفقر بل يكون راضيًا به، وأرفع منه أن يكون طالبًا له وفرحًا به لعلمه بغوائل الغنى، ويكون متوكلًا في باطنه على الله تعالى واثقًا به في قدر ضرورته أنه يأتيه لا محالة ويكون كارهًا للزيادة على الكفاف. وقد قال علي كرّم الله وجهه: إنّ لله تعالى عقوبات بالفقر ومثوبات بالفقر؛ من علامات الفقر إذا كان مثوبة أن يحسن عليه خلقه ويطيع به ربه ولا يشكو حاله، ويشكر الله تعالى على فقره، ومن علاماته ـ إذا كان عقوبة ـ أن يسوء عليه خلقه ويعصي ربه بترك طاعته ويكثر الشكاية ويتسخط القضاء، وهذا يدل أنّ كل فقير فليس بمحمود، بل المحمود الذي لا يتسخط ويرضى أو يفرح بالفقر ويرضى لعلمه بثمرته، إذ قيل: ما أعطى عبد شيئًا من الدنيا إلا قيل له: خذه على ثلاث أثلاث: شغل وهم وطول حساب.

وأما أدب ظاهره: فأن يظهر التعفف والتجمل ولا يظهر الشكوى والفقر، بل يستر فقره ويستر أنه يستره ففي الحديث: «إنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحِبُّ الفَقِيرَ المُتَعَفِّفَ أَبا العِيالِ» وقال تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ [البقرة:٢٧٣] وقال سفيان: أفضل الأعمال التجمل عند المحنة. وقال بعضهم: ستر الفقر من كنوز البر.

وأما في أعماله فأدبه: أن لا يتواضع لغني لأجل غناه، بل يتكبر عليه. قال علي كرّم الله وجهه: ما أحسن تواضع الغني للفقير رغبة في ثواب الله تعالى، وأحسن منه تيه الفقير على الغني ثقة بالله عز وجل، فهذه رتبة، وأقل منها أن لا يخالط الأغنياء ولا يرغب في مجالستهم لأن ذلك من مبادىء الطمع. قال الثوري رحمه الله: إذا خالط الفقير الأغنياء فاعلم أنه مراء، وإذا خالط السلطان فاعلم أنه لص. وقال بعض العارفين: إذا خالط الفقير الأغنياء انحلت عروته، فإذا طمع فيهم انقطعت عصمته، فإذا سكن إليهم ضل. وينبغي أن لا يسكت عن ذكر الحق مداهنة للأغنياء وطمعًا في العطاء.

وأما أدبه في أفعاله: فألاّ يفتر بسبب الفقر عن عبادة، ولا يمنع بذل قليل ما يفضل عنه، فإنّ ذلك جهد المقل، وفضله أكثر من أموال كثيرة تبذل عن ظهر غنى. روى زيد بن أسلم قال: قال رسول الله ﷺ: «دِرْهَمٌ مِنَ الصَّدَقَةِ أَفْضَلُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ مائَةِ أَلْفِ دِرْهَم». قيل: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: «أَخْرَجَ رَجُلٌ مِنْ عَرْضِ مَالِهِ مائَةَ أَلْفِ دِرْهَم فَتَصَدَّقَ بِهَا، وَأَخْرَجَ رَجُلٌ دِرْهَمًا مِنْ دِرْهَمَيْنِ لا يَمْلِكُ غَيْرَهُمَا طَيِّبَةً بِهِ نَفْسُهُ، فَصَارَ صَاحِبُ الدِّرْهَم أَفْضَلَ مِنْ صَاحِبِ المائَةِ أَلف»(١)، وينبغي ألاّ يدّخر مالًا بل يأخذ قدر الحاجة ويخرج الباقي وفي الادخار ثلاث درجات.

---

(١) **حسن**: حديث زيد بن أسلم «درهم من الصدقة أفضل عند الله من مائة ألف درهم». أخرجه النسائي من حديث أبي هريرة متصلا، وقد تقدم في الزكاة، ولا أصل له من رواية زيد بن أسلم مرسلا. [النسائي: ٢٥٢٧، وانظر صحيح الترغيب: ٨٨٣].

إحداها: أن لا يدّخر إلا ليومه وليلته وهي درجة الصدّيقين.

والثانية: أن يدّخر لأربعين يومًا فإنّ ما زاد عليه داخل في طول الأمل، وقد فهم العلماء ذلك من ميعاد الله تعالى لموسى عليه السلام ففهم منه الرخصة في أمل الحياة أربعين يومًا. وهذه درجة المتقين.

والثالثة: أن يدّخر لسنته وهي أقصى المراتب وهي رتبة الصالحين، ومن زاد في الادخار على هذا فهو واقع في غمار العموم خارج عن حيز الخصوص بالكلية، فغنى الصالح الضعيف في طمأنينة قلبه في قوت سنته، وغنى الخصوص في أربعين يومًا، وغنى خصوص الخصوص في يوم وليلة، وقد قسم النبي ﷺ نساءه على مثل هذه الأقسام. فبعضهن كان يعطيها قوت سنة عند حصول ما يحصل، وبعضهن قوت أربعين يومًا وبعضهن يومًا وليلة وهو قسم عائشة وحفصة.

بيان آداب الفقير في قبول العطاء اذا جاءه بغير سؤال:

ينبغي أن يلاحظ الفقير فيما جاءه ثلاثة أمور: نفس المال، وغرض المعطي، وغرضه في الأخذ.

أما نفس المال، فينبغي أن يكون حلالًا خاليًا عن الشبهات كلها، فإن كان فيه شبهة فليحترز من أخذه، وقد ذكرنا تفصيل ذلك في كتاب الحلال والحرام درجات الشبهة وما يجب اجتنابه وما يستحب.

وأما غرض المعطي؛ فلا يخلو: إما أن يكون غرضه تطييب قلبه وطلب محبته وهو الهدية، أو الثواب وهو الصدقة والزكاة، والذكر والرياء والسمعة إما على التجرّد، وإما ممزوجًا ببقية الأغراض.

أما الأوّل: وهو الهدية فلا بأس بقبولها فإن قبولها سنة رسول الله ﷺ [(١)] ولكن ينبغي ألاّ يكون فيها منة، فإن كان فيها منة فالأولى تركها، فإن علم أن بعضها مما تعظم فيه المنة فليرد البعض دون البعض؛ فقد أهدي إلى رسول الله ﷺ سمن وأقط وكبش، فقبل السمن والأقط ورد الكبش [(٢)]، وكان يقبل من بعض الناس ويرد على بعض [(٣)]، وقال ﷺ: «لَقَدْ هَمَمْتُ أَلاَّ

---

(١) **صحيح**: حديث: أن قبول الهدية سنة. تقدم أنه ﷺ كان يقبل الهدية. [البخاري: ٢٥٨٥ عن عائشة، والبخاري: ٢٥٧٦، ومسلم: ١٠٧٧ عن أبي هريرة].

(٢) حديث: أهدي إلى النبي ﷺ سمن وأقط وكبش فقبل السمن والأقط ورد الكبش. أخرجه أحمد في أثناء حديث ليعلى بن مرة: وأهدت إليه كبشين وشيئا من سمن وأقط، فقال النبي ﷺ «خذ الأقط والسمن وأحد الكبشين ورد عليها الآخر» وإسناده جيد. وقال وكيع: مرة عن يعلى بن مرة عن أبيه. [أحمد: ١٧٠٩٨].

(٣) **صحيح**: حديث: كان يقبل من بعض الناس ويرد على بعض. رواه أبو داود والترمذي من حديث أبي هريرة «وايم الله لا أقبل بعد يومي هذا من أحد هدية إلا أن يكون مهاجريا... الحديث» فيه محمد بن إسحاق ورواه بالعنعنة. [أبو داود: ٣٥٣٧، والترمذي: ٣٩٤٦، وانظر صحيح أبي داود].

أَتَّهِبَ إِلاَّ مِنْ قُرَشِي أَوْ ثَقَفِي أَوْ أَنْصَارِي أَوْ دَوْسِي» (١) ، وفعل هذا جماعة من التابعين. وجاءت إلى فتح الموصلي صرة فيها خمسون درهمًا فقال: حدّثنا عطاء عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ أَتَاهُ رِزْقٌ مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ فَرَدَّهُ فَإِنَّما يَرُدُّهُ عَلَى اللَّهِ» (٢) ، ثم فتح الصرة فأخذ منها درهمًا ورد سائرها. وكان الحسن يروي هذا الحديث أيضًا ولكن حمل إليه رجل كيسًا ورزمة من رقيق ثياب خراسان، فرد ذلك وقال: من جلس مجلسي هذا وقبل من الناس مثل هذا لقي الله عز وجل يوم القيامة وليس له خلاق. وهذا يدل على أنّ أمر العالم والواعظ أشدّ في قبول العطاء. وقد كان الحسن يقبل من أصحابه. وكان إبراهيم التيمي يسأل من أصحابه الدرهم والدرهمين ونحوه ويعرض عليه غيرهم المئين فلا يأخذها. وكان بعضهم إذا أعطاه صديقه شيئًا يقول: اتركه عندك وانظر إن كنت بعد قبوله في قلبك أفضل مني قبل القبول فأخبرني حتى آخذه وإلا فلا، وأمارة هذا أن يشق عليه الرد لو رده ويفرح بالقبول ويرى المنة على نفسه في قبول صديقه هديته، فإن علم أنه يمازجه منه فأخذه مباح ولكنه مكروه عند الفقراء الصادقين.

وقال بشر : ما سألت أحدًا قط شيئًا إلا سريا السقطي لأنه قد صح عندي زهده في الدنيا فهو يفرح بخروج الشيء من يده ويتبرم ببقائه عنده فأكون عونًا له على ما يحب. وجاء خراساني إلى الجنيد رحمه الله بمال وسأله أن يأكله فقال: أفرّقه على الفقراء، فقال: ما أريد هذا. قال: ومتى أعيش حتى آكل هذا؟ قال: ما أريد أن تنفقه في الخل والبقل بل في الحلاوات والطيبات، فقبل ذلك منه، فقال الخراساني: ما أجد في بغداد أمنّ علي منك، فقال الجنيد: ولا ينبغي أن يقبل إلا من مثلك.

الثاني : أن يكون للثواب المجرّد وذلك صدقة أو زكاة، فعليه أن ينظر في صفات نفسه هل هو مستحق للزكاة؟ فإن اشتبه عليه فهو محل شبهة، وقد ذكرنا تفصيل ذلك في كتاب أسرار الزكاة. وإن كانت صدقة وكان يعطيه لدينه فلينظر إلى باطنه، فإن كان مقارفًا لمعصية في السر يعلم أن المعطي لو علم ذلك لنفر طبعه ولما تقرّب إلى الله بالتصديق عليه، فهذا حرام

---

(١) صحيح : حديث «لقد هممت أن لا أتهب إلا من قرشي أو ثقفي أو أنصاري أو دوسي». أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة وقال: روى من غير وجه عن أبي هريرة، قلت: ورجاله ثقات. [الترمذي: ٣٩٤٥، وانظر صحيح الترمذي].

(٢) حديث عطاء مرسلا «من أتاه رزق من غير مسألة فرده فإنما يرد على الله عز وجل». لم أجده مرسلا هكذا، ولأحمد وأبي يعلى والطبراني بإسناد جيد من حديث خالد بن عدي الجهني «من بلغه معروف من أخيه من غير مسألة ولا إشراف نفس فليقبله ولا يرده فإنما هو رزق ساقه الله عز وجل إليه» [أحمد: ١٧٤٧٧، وانظر صحيح الترغيب: ٨٤٨] ولأحمد وأبي داود الطيالسي من حديث أبي هريرة «من أتاه الله من هذا المال شيئًا من غير أن يسأله فليقبله» [أحمد: ٧٨٦١، وانظر صحيح الترغيب: ٨٤٩، وقال الألباني صحيح لغيره] وفي الصحيحين من حديث عمر «ما أتاك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه... الحديث» [البخاري: ٧١٦٤، ومسلم: ١٠٤٥].

أخذه كما لو أعطاه لظنه أنه عالم أو علوي ولم يكن، فإنّ أخذه حرام محض لا شبهة فيه.

الثالث: أن يكون غرضه السمعة والرياء والشهرة، فينبغي أن يرد عليه قصده الفاسد ولا يقبله، إذ يكون معينًا له على غرضه الفاسد. وكان سفيان الثوري يرد ما يعطى ويقول: لو علمت أنهم لا يذكرون ذلك افتخارًا به لأخذت. وعوتب بعضهم في رد ما كان يأتيه من صلة فقال: إنما أَرُدُّ صلتهم إشفاقًا عليهم ونصحًا لهم لأنهم يذكرون ذلك ويحبون أن يعلم به فتذهب أموالهم وتحبط أجورهم.

وأما غرضه في الأخذ فينبغي أن ينظر: أهو محتاج إليه فيما لا بدّ منه أو هو مستغن عنه، فإن كان محتاجًا إليه وقد سلم من الشبهة والآفات التي ذكرناها في المعطي فالأفضل له الأخذ، قال النبي ﷺ: «ما المُعْطِي مِنْ سَعَةٍ بِأَعْظَمَ أَجْرًا مِنَ الآخِذِ إذا كَانَ مُحْتَاجًا» (١)، وقال ﷺ: «مَنْ أَتَاهُ شَيْءٌ مِنْ هذا المَالِ مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ وَلا اسْتِشْرَافٍ فَإِنَّمَا هُوَ رِزْقٌ سَاقَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ» (٢)، وفي لفظ آخر: «فلا يرده». وقال بعض العلماء: من أعطي ولم يأخذ سأل ولم يعط. وقد كان سري السقطي يوصل إلى أحمد بن حنبل رحمة الله عليهما شيئًا فرده مرة، فقال له السري: يا أحمد، احذر آفة الرد فإنها أشدّ من آفة الأخذ، فقال له أحمد: أعد عليّ ما قلت فأعاده، فقال أحمد: ما رددت عليك إلاّ لأنّ عندي قوت شهر، فاحبسه لي عندك، فإذا كان بعد شهر فأنفذه إليّ، وقد قال بعض العلماء: يخاف في الرد مع الحاجة عقوبة من ابتلاء بطمع أو دخول في شبهة أو غيره؛ فأما إذا كان ما أتاه زائدًا على حاجته فلا يخلو: إما أن يكون حاله الاشتغال بنفسه أو التكفل بأمور الفقراء والإنفاق عليهم لما في طبعه من الرفق والسخاء، فإن كان مشغولًا بنفسه فلا وجه لأخذه وإمساكه إن كان طالبًا طريق الآخرة، فإنّ ذلك محض اتباع الهوى، وكل عمل ليس لله فهو سبيل الشيطان أو داع إليه، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه، ثم له مقامان:

أحدهما: أن يأخذ في العلانية ويرد في السر، أو يأخذ في العلانية ويفرّق في السر، وهذا مقام الصديقين؛ وهو شاق على النفس لا يطيقه إلا من اطمأنت نفسه بالرياضة.

والثاني: أن يترك ولا يأخذ ليصرفه صاحبه إلى من هو أحوج منه، أو يأخذ ويوصل إلى من هو أحوج منه، فيفعل كليهما في السر أو كليهما في العلانية؛ وقد ذكرنا هل الأفضل إظهار الأخذ أو إخفاؤه؟ في كتاب أسرار الزكاة مع جملة من أحكام الفقر فليطلب من موضعه. وأما امتناع أحمد بن حنبل عن قبول عطاء سري السقطي رحمهما الله، فإنما كان لاستغنائه عنه،

---

(١) **ضعيف**: حديث «ما المعطى من سعة بأعظم أجرا من الآخذ إذا كان محتاجا». رواه الطبراني من حديث ابن عمر، وقد تقدم في الزكاة. [انظر ضعيف الترغيب: ٥٠٥].

(٢) حديث «من أتاه شيء من هذا المال من غير مسألة ولا استشراف فإنما هو رزق ساقه الله إليه» وفي لفظ آخر «فلا يرده». تقدما قبل هذا بحديث. [سبق تخريجه قريباً].

إذ كان عنده قوت شهر ولم يرض لنفسه أن يشتغل بأخذه وصرفه إلى غيره، فإنّ في ذلك آفات وأخطارًا، والورع يكون حذرًا من مظانّ الآفات إذ لم يأمن مكيدة الشيطان على نفسه.

وقال بعض المجاورين بمكة: كانت عندي دراهم أعددتها للإنفاق في سبيل الله، فسمعت فقيرًا قد فرغ من طوافه وهو يقول بصوت خفي: أنا جائع كما ترى عريان كما ترى، فما ترى فيما ترى يا من يَرَى ولا يُرَى، فنظرت فإذا عليه خلقان لا تكاد تواريه، فقلت في نفسي: لا أجد لدراهمي موضعًا أحسن من هذا؛ فحملتها إليه، فنظر إليها ثُم أخذ منها خمسة دراهم وقال: أربعة ثمن مئزرين، ودرهم أنفقه ثلاثًا فلا حاجة بي إلى الباقي فرده. قال: فرأيته الليلة الثانية وعليه مئزران جديدان، فهجس في نفسي منه شيء، فالتفت إليَّ فأخذ بيدي، فأطافني معه أسبوعًا كل شوط منها على جوهر من معادن الأرض يتخشخش تحت أقدامنا إلى الكعبين: منها ذهب وفضة وياقوت ولؤلؤ وجوهر، ولم يظهر ذلك للناس، فقال: هذا كله قد أعطانيه فزهدت فيه وآخذ من أيدي الخلق لأنّ هذه أثقال وفتنة، وذلك للعباد فيه رحمة ونعمة، والمقصود من هذا: إن الزيادة على قدر الحاجة إنما تأتيك ابتلاء وفتنة لينظر الله إليك ماذا تعمل فيه، وقدر الحاجة يأتيك رفقًا بك، فلا تغفل عن الفرق بين الرفق والابتلاء. قال الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧] وقد قال ﷺ: «لا حَقَّ لابْنِ آدَمَ إلاَّ في ثَلاثٍ: طَعَامٍ يُقِيمُ صُلْبَهُ وَثَوْبٍ يُوَارِي عَوْرَتَهُ، وَبَيْتٍ يُكِنُّهُ، فَمَا زَادَ فَهُوَ حِسَابٌ» (١)، فإذن أنت في أخذ قدر الحاجة من هذه الثلاث مثاب، وفيما زاد عليه إن لم تعص الله متعرّض للحساب، وإن عصيت الله فأنت متعرّض للعقاب.

ومن الاختبار أيضًا: أن تعزم على ترك لذة من اللذات تقرّبًا إلى الله تعالى وكسرًا لصلة النفس فتأتيك عفوًا صفوًا لتمتحن بها قوّة عقلك، فالأولى الامتناع عنها فإن النفس إذا رخص لها في نقض العزم ألفت نقض العهد وعادت لعادتها ولا يمكن قهرها، فردّ ذلك مهم وهو الزهد، فإن أخذته وصرفته إلى محتاج فهو غاية الزهد، ولا يقدر عليه إلا الصدّيقون: وأما إذا كانت حالك السخاء والبذل والتكفل بحقوق الفقراء وتعهد جماعة من الصلحاء فخذ ما زاد على حاجتك فإنه غير زائد على حاجة الفقراء، وبادر به إلى الصرف إليهم ولا تدّخره، فإن إمساكه ولو ليلة واحدة فيه فتنة واختبار، فربما يحلو في قلبك فتمسكه فيكون فتنة عليك وقد تصدّى لخدمة الفقراء جماعة اتخذوها وسيلة إلى التوسع في المال والتنعم في المطعم والمشرب وذلك هو الهلاك ومن كان غرضه الرفق وطلب الثواب به فله أن يستقرض على

---

(١) **ضعيف**: حديث «لا حق لابن آدم إلا في ثلاث: طعام يقيم صلبه، وثوب يواري عورته، وبيت يكنه فما زاد فهو حساب». أخرجه الترمذي من حديث عثمان بن عفان وقال «وجلف الخبز والماء» بدل قوله «طعام يقيم صلبه» وقال صحيح. [الترمذي: ٢٣٤١، وانظر ضعيف الترغيب: ١٨٧٦].

حسن الظنّ بالله لا على اعتماد السلاطين الظلمة، فإن رزقه الله من حلال قضاه، وإن مات قبل القضاء قضاه الله تعالى عنه وأرضى غرماءه، وذلك بشرط أن يكون مكشوف الحال عند من يقرضه فلا يغر المقرض ولا يخدعه بالمواعيد بل يكشف حاله عنده ليقدم على إقراضه على بصيرة، ودين مثل هذا الرجل واجب أن يقضى من مال بيت المال ومن الزكاة، وقد قال تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ [الطلاق :٧] قيل معناه: ليبع أحد ثوبيه. وقيل معناه: فليستقرض بجاهه، فذلك مما آتاه الله. وقال بعضهم: إن لله تعالى عبادًا ينفقون على قدر بضائعهم، ولله عباد ينفقون على قدر حسن الظن بالله تعالى. ومات بعضهم فأوصى بماله لثلاث طوائف: الأقوياء، والأسخياء، والأغنياء، فقيل: من هؤلاء؟ فقال: أما الأقوياء فهم أهل التوكل على الله تعالى، وأما الأسخياء فهم أهل حسن الظنّ بالله تعالى، وأما الأغنياء فهم أهل الانقطاع إلى الله تعالى، فإذن مهما وجدت هذه الشروط فيه وفي المال وفي المعطي فليأخذه، وينبغي أن يرى ما يأخذه من الله لا من المعطي؛ لأنّ المعطي واسطة قد سخر للعطاء، وهو مضطرّ إليه بما سلط عليه من الدواعي والإرادات والاعتقادات. وقد حكي أن بعض الناس دعا شقيقًا في خمسين من أصحابه، فوضع الرجل مائدة حسنة، فلما قعد قال لأصحابه: إن هذا الرجل يقول: من لم يرن صنعت هذا الطعام وقدّمته فطعامي عليه حرام، فقاموا كلهم وخرجوا إلا شابًّا منهم كان دونهم في الدرجة، فقال صاحب المنزل لشقيق: ما قصدت بهذا؟ قال: أردت أن أختبر توحيد أصحابي كلهم. وقال موسى عليه السلام: يا رب جعلت رزقي هكذا على أيدي بني إسرائيل يغديني هذا يومًا ويعشيني هذا ليلة فأوحى الله تعالى إليه هكذا أصنع بأوليائي، أجري أرزاقهم على أيدي البطالين من عبادي ليؤجروا فيهم. فلا ينبغي أن يرى المعطي إلا من حيث إنه مسخر مأجور من الله تعالى، نسأل الله حسن التوفيق لما يرضاه.

بيان تحريم السؤال من غير ضرورة، وآداب الفقير المضطر فيه:

اعلم أنه قد وردت مناهٍ كثيرة في السؤال وتشديدات، وورد فيه أيضًا ما يدل على الرخصة إذ قال ﷺ: «لِلسَّائِلِ حَقٌّ وَلَوْ جَاءَ عَلَى فَرَسٍ» (١)، وفي الحديث: «رُدُّوا السَّائِلَ وَلَوْ بِظِلْفٍ مُحْرَقٍ» (٢)، ولو كان السؤال حرامًا مطلقًا لما جاز إعانة المتعدّي على عدوانه والإعطاء

(١) ضعيف: حديث «للسائل حق ولو جاء على فرس». رواه أبو داود من حديث الحسين بن علي، ومن حديث علي وفي الأول يعلى بن أبي يحيى جهله أبو حاتم ووثقه ابن حبان، وفي الثاني شيخ لم يسم وسكت عليهما أبو داود، وما ذكره ابن الصلاح في علوم الحديث أنه بلغه عن أحمد بن حنبل قال: أربعة أحاديث تدور في الأسواق ليس لها أصل منها «للسائل حق... الحديث» فإنه لا يصح عن أحمد، فقد أخرج حديث الحسين بن علي في مسنده. [أبو داود: ١٦٦٥، وأحمد: ١٧٣٢، وانظر السلسلة الضعيفة: ١٣٧٨].

(٢) صحيح: حديث «ردوا السائل ولو بظلف محرق». رواه أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح، والنسائي واللفظ له من حديث أم يجيد. وقال ابن عبد البر. حديث مضطرب. [أبو داود: ١٦٦٧، والترمذي: ٦٦٥، والنسائي: ٢٥٦٥، وانظر صحيح الجامع: ٣٥٠٢، والظلف: اسم لقدم البقر أو الغنم].

إعانة، فالكاشف للغطاء فيه أن السؤال حرام في الأصل وإنما يباح بضرورة أو حاجة مهمة قريبة من الضرورة، فإن كان عنها بدّ فهو حرام، وإنما قلنا إن الأصل فيه التحريم لأنه لا ينفك عن ثلاثة أمور محرمة.

الأول: إظهار الشكوى من الله تعالى، إذ السؤال إظهار للفقر وذكر لقصور نعمة الله تعالى عنه وهو عين الشكوى، وكما أن العبد المملوك لو سأل لكان سؤاله تشنيعًا على سيده، فكذلك سؤال العباد تشنيع على الله تعالى، وهذا ينبغي أن يحرم ولا يحل إلا لضرورة كما تحل الميتة.

الثاني: أن فيه إذلال السائل نفسه لغير الله تعالى وليس للمؤمن أن يذل نفسه لغير الله، بل عليه أن يذل نفسه لمولاه فإن فيه عزه، فأما سائر الخلق فإنهم عباد أمثاله فلا ينبغي أن يذل لهم إلا لضرورة، وفي السؤال ذل للسائل بالإضافة إلى المسئول.

الثالث: أنه لا ينفك عن إيذاء المسئول غالبًا؛ لأنه ربما لا تسمح نفسه بالبذل عن طيب قلب منه، فإن بذل حياء من السائل أو رياء فهو حرام على الآخذ، وإن منع ربما استحيا وتأذى في نفسه بالمنع إذ يرى نفسه في صورة البخلاء، ففي البذل نقصان ماله وفي المنع نقصان جاهه، وكلاهما مؤذيان، والسائل هو السبب في الإيذاء والإيذاء حرام إلا بضرورة، ومهما فهمت هذه المحذورات الثلاث فقد فهمت قوله ﷺ «مَسْأَلَةُ النَّاسِ مِنَ الفَوَاحِشِ ما أُحِلَّ مِنَ الفَوَاحِشِ غَيْرُهَا» (١)، فانظر كيف سماها فاحشة، ولا يخفى أن الفاحشة إنما تباح لضرورة كما يباح شرب الخمر لمن غص بلقمة وهو لا يجد غيره. وقال ﷺ «مَنْ سَأَلَ عَنْ غِنًى فَإِنَّمَا يَسْتَكْثِرُ مِنْ جَمْرِ جَهَنَّمَ» (٢)، «وَمَنْ سَأَلَ وَلَهُ مَا يُغْنِيهِ جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَوَجْهُهُ عَظْمٌ يَتَقَعْقَعُ وَلَيْسَ عَلَيْهِ لَحْمٌ» وفي لفظ آخر: «كانَتْ مَسْأَلَتُهُ خُدُوشًا وَكُدُوحًا فِي وَجْهِهِ» (٣)، وهذه الألفاظ صريحة في التحريم والتشديد. وبايع رسول الله ﷺ قومًا على الإسلام فاشترط عليهم السمع والطاعة ثم قال لهم كلمة خفية: «ولا تسألوا الناس شيئًا» (٤)، وكان ﷺ يأمر كثيرًا

---

(١) حديث «مسألة الناس من الفواحش، وما أحل الله من الفواحش غيرها». لم أجد له أصلا.

(٢) حديث «من سأل عن غني فإنما يستكثر من جمر جهنم». [أبي داود: ١٦٢٩، **وانظر صحيح الترغيب: ٨٠٥**] رواه أبو داود وابن حبان من حديث سهل ابن الحنظلية مقتصرا على ما ذكر منه وتقدم في الزكاة، ولمسلم من حديث أبي هريرة «من يسأل الناس أموالهم تكثرا فإنما يسأل جمرا... الحديث» [ملم: ١٠٤١]. وللبراز والطبراني من حديث مسعود بن عمر «ولا يزال العبد يسأل وهو غني يخلق وجهه» [انظر ضعيف الترغيب: ٤٨٨] وفي إسناده لين وللشيخين من حديث ابن عمر «ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة وليس على وجهه مزعة لحم» [البخاري: ١٤٧٥، وعند مسلم: ١٠٤٠] وإسناده جيد.

(٣) **صحيح**: حديث «من سأل وله ما يغنيه كانت مسألته خدوشا وكدوحا في وجهه». رواه أصحاب السنن من حديث ابن مسعود، وتقدم في الزكاة. [أبو داود: ١٦٢٦، والترمذي: ٦٥٠، **والنسائي: ٢٥٩٢**، وابن ماجه: ١٨٤٠، **وانظر السلسلة الصحيحة: ٤٩٩**].

(٤) **صحيح**: حديث: بايع قوما على الإسلام فاشترط عليهم السمع والطاعة». أخرجه مسلم من حديث عوف

بالتعفف عن السؤال ويقول: «مَنْ سَأَلَنَا أَعْطَيْنَاهُ وَمَنِ اسْتَغْنَى أَغْنَاهُ اللَّهُ، وَمَنْ لَمْ يَسْأَلْنَا فَهُوَ أَحَبُّ إِلَيْنَا» (١)، وقال ﷺ: «اسْتَغْنُوا عَنِ النَّاسِ وَمَا قَلَّ مِنَ السُّؤَالِ فَهُوَ خَيْرٌ» قالوا: ومنك يا رسول الله؟ قال: «وَمِنِّي» (٢)، وسمع عمر رضي الله عنه سائلًا يسأل بعد المغرب فقال لواحد من قومه: عشِّ الرجل، فعشاه ثم سمعه ثانيًا يسأل فقال: ألم أقل لك عش الرجل؟ قال: قد عشيته، فنظر عمر فإذا تحت يده مخلاة مملوءة خبزًا فقال: لست سائلًا ولكنك تاجر، ثم أخذ المخلاة ونثرها بين يدي إبل الصدقة وضربه بالدرّة، وقال: لا تعد. ولولا أنّ سؤاله كان حرامًا لما ضربه ولا أخذ مخلاته، ولعل الفقيه الضعيف المنة الضيق الحوصلة يستبعد هذا من فعل عمر ويقول: أما ضربه فهو تأديب وقد ورد الشرع بالتعزير، وأما أخذه ماله فهو مصادرة والشرع لم يرد بالعقوبة بأخذ المال فكيف استجازه؟ وهو استبعاد مصدره القصور في الفقه، فأين يظهر فقه الفقهاء كلهم في حوصلة عمر بن الخطاب رضي الله عنه واطلاعه على أسرار دين الله ومصالح عباده؟ أفترى أنه لم يعلم أنّ المصادرة بالمال غير جائزة أو علم ذلك ولكن أقدم عليه غضبًا في معصية الله وحاشاه، أو أراد الزجر بالمصلحة بغير طريق شرعها نبي الله ﷺ، وهيهات فإن ذلك أيضًا معصية، بل الفقه الذي لاح له فيه أنه رآه مستغنيًا عن السؤال، وعلم أن من أعطاه شيئًا فإنما أعطاه على اعتقاد أنه محتاج، وقد كان كاذبًا فلم يدخل في ملكه بأخذه مع التلبيس وعسر تمييز ذلك ورده إلى أصحابه، إذ لا يعرف أصحابه بأعيانهم، فبقي مالًا لا مالك له، فوجب صرفه إلى المصالح، وإبل الصدقة وعلفها من المصالح، ويتنزل أخذ السائل مع إظهار الحاجة كاذبًا كأخذ العلوي بقوله: إني علوي وهو كاذب. فإنه لا يملك ما يأخذه، كأخذ الصوفي الصالح الذي يعطى لصلاحه وهو في الباطن مقارف لمعصية لو عرفها المعطي لما أعطاه ــ وقد ذكرنا في مواضع أن ما أخذوه على هذا الوجه لا يملكونه وهو حرام عليهم ويجب عليهم الرد إلى مالكه ــ فاستدل بفعل عمر رضي الله عنه على صحة هذا المعنى الذي يغفل عنه كثير من الفقهاء، وقد قرّرناه في مواضع، ولا تستدل بغفلتك عن هذا الفقه على بطلان فعل عمر.

فإذا عرفت أن السؤال يباح لضرورة، فاعلم أن الشيء، إما أن يكون مضطرًا إليه، أو محتاجًا إليه حاجة مهمة أو حاجة خفيفة. أو مستغنى عنه؛ فهذه أربعة أحوال.

أما المضطرّ إليه فهو سؤال الجائع عند خوفه على نفسه موتًا أو مرضًا وسأل العاري وبدنه

ابن مالك الأشجعي. [مسلم: ١٠٤٣].

(١) حديث «من سألنا أعطيناه ومن استغنى أغناه الله». أخرجه ابن أبي الدنيا في القناعة، والحارث بن أبي أسامة في مسنده من حديث أبي سعيد الخدري، وفيه حصن بن هلال لم أر من تكلم فيه، وباقيهم ثقات.

(٢) حديث «استغنوا عن الناس وما قل من السؤال فهو خير» [صحيح الترغيب: ٨١٨] قالوا: ومنك يا رسول الله؟ قال «ومني». أخرجه البزار والطبراني من حديث ابن عباس «استغنوا عن الناس ولو بشوص السواك، وإسناده صحيح، وله في حديث «فتعففوا ولو بحزم الحطب» وفيه من لم يسم، وليس فيه: وما قل من السؤال... إلخ.

مكشوف ليس معه ما يواريه، وهو مباح مهما وجدت بقية الشروط في المسئول بكونه مباحًا، والمسئول منه بكونه راضيًا في الباطن، وفي السائل بكونه عاجزًا عن الكسب، فإن القادر على الكسب وهو بطال له السؤال إلا إذا استغرق طلب العلم أوقاته، وكل من له خط فهو قادر على الكسب بالوراقة.

وأما المستغني فهو الذي يطلب شيئًا وعنده مثله وأمثاله، فسؤاله حرام قطعًا، وهذان طرفان واضحان.

وأما المحتاج حاجة مهمة فكالمريض الذي يحتاج إلى دواء ليس يظهر خوفه لو لم يستعمله ولكن لا يخلو عن خوف، وكمن له جبة لا قميص تحتها في الشتاء وهو يتأذى بالبرد تأذيًا لا ينتهي إلى حدّ الضرورة، وكذلك من يسأل لأجل الكراء وهو قادر على المشي بمشقة، فهذا أيضًا ينبغي أن تسترسل عليه الإباحة لأنها أيضًا حاجة محققة ولكن الصبر عنه أولى وهو بالسؤال تارك للأولى ولا يسمى سؤاله مكروهًا مهما صدق في السؤال وقال: ليس تحت جبتي قميص والبرد يؤذيني أذى أطيقه ولكن يشق عليَّ، فإذا صدق فصدقه يكون كفارة لسؤاله إن شاء الله تعالى.

وأما الحاجة الخفيفة فمثل سؤاله قميصًا ليلبسه فوق ثيابه عند خروجه ليستر الخروق من ثيابه عن أعين الناس، وكمن يسأل لأجل الأدم وهو واجد للخبز، وكمن يسأل الكراء لفرس في الطريق وهو واجد كراء الحمار، أو يسأل كراء المحمل وهو قادر على الراحلة، فهذا ونحوه إن كان فيه تلبيس حال بإظهار حاجة غير هذه فهو حرام، وإن لم يكن وكان فيه شيء من المحذورات الثلاثة من الشكوى والذل وإيذاء المسئول فهو حرام، لأنّ مثل هذه الحاجة لا تصلح لأن تباح بها هذه المحذورات، وإن لم يكن فيها شيء من ذلك فهو مباح مع الكراهة.

فإن قلت: فكيف يمكن إخلاء السؤال عن هذه المحذورات؟ فاعلم أن الشكوى تندفع بأن يظهر الشكر لله والاستغناء عن الخلق ولا يسأل سؤال محتاج، ولكن يقول: أنا مستغن بما أملكه ولكن تطالبني رعونة النفس بثوب فوق ثيابي وهو فضلة عن الحاجة وفضول من النفس، فيخرج به عن حدّ الشكوى وأما الذل فبأن يسأل أباه أو قريبه أو صديقه الذي يعلم أنه لا ينقصه ذلك في عينه ولا يزدريه بسبب سؤاله، أو الرجل السخي الذي قد أعدّ ماله لمثل هذه المكارم فيفرح بوجود مثله ويتقلد منه منة بقبوله فيسقط عنه الذل بذلك، فإنّ الذل لازم للمنة لا محالة. وأما الإيذاء فسبيل الخلاص عنه أن لا يعين شخصًا بالسؤال بعينه بل يلقي الكلام عرضًا بحيث لا يقدم على البذل إلا متبرع بصدق الرغبة، وإن كان في القوم شخص مرموق لو لم يبذل لكان يلام، فهذا إيذاء، فإنه ربما يبذل كرهًا خوفًا من الملامة، ويكون الأحب إليه في الباطن الخلاص لو قدر عليه من غير الملامة، وأما إذا كان يسأل شخصًا معينًا فينبغي ألاّ يصرح بل يعرض تعريضًا يبقى له سبيلاً إلى التغافل إن أراد فإذا لم يتغافل مع القدرة عليه فذلك لرغبته

وأنه غير متأذٍّ به، وينبغي أن يسأل من لا يستحيا منه لو رده أو تغافل عنه، فإنّ الحياء من السائل يؤذي كما أنّ الرياء مع غير السائل يؤذي.

فإن قلت: فإذا أخذ مع العلم بأن باعث المعطي هو الحياء منه أو من الحاضرين ولولاه لما ابتدأه به فهل هو حلال أو شبهة؟ فأقول: ذلك حرام محض لا خلاف فيه بين الأمة، وحكمه حكم أخذ مال الغير بالضرب والمصادرة، إذ لا فرق بين أن يضرب ظاهر جلده بسياط الخشب أو يضرب باطن قلبه بسوط الحياء وخوف الملام، وضرب الباطن أشدّ نكاية في قلوب العقلاء، ولا يجوز أن يقال: هو في الظاهر قد رضي به، وقد قال ﷺ: «إِنَّمَا أَحْكُمُ بِالظَّاهِرِ وَاللَّهُ يَتَوَلَّى السَّرَائِرَ»(١)، فإنّ هذه ضرورة القضاء في فصل الخصومات إذ لا يمكن ردهم إلى البواطن وقرائن الأحوال، فاضطرّوا إلى الحكم بظاهر القول باللسان مع أنه ترجمان كثير الكذب، ولكن الضرورة دعت إليه، وهذا سؤال عما بين العبد وبين الله تعالى، والحاكم فيه أحكم الحاكمين، والقلوب عنده كالألسنة عند سائر الحكام فلا تنظر في مثل هذا إلا إلى قلبك وإن أفتوك وأفتوك، فإنّ المفتي معلم للقاضي والسلطان ليحكموا في عالم الشهادة، ومفتي القلوب هم علماء الآخرة، وبفتواهم النجاة من سلطان الآخرة، كما أنّ بفتوى الفقيه النجاة من سطوة سلطان الدنيا، فإذا ما أخذه مع الكراهة لا يملكه بينه وبين الله تعالى ويجب عليه رده إلى صاحبه، فإن كان يستحيي من أن يسترده ولم يسترده فعليه أن يثيبه على ذلك بما يساوي قيمته في معرض الهدية والمقابلة ليتقصى عن عهدته، فإن لم يقبل هديته فعليه أن يرد ذلك إلى ورثته، فإن تلف في يده فهو مضمون عليه بينه وبين الله تعالى وهو عاص بالتصرف فيه بالسؤال الذي حصل به الأذى.

فإن قلت: فهذا أمر باطن يعسر الاطلاع عليه، فكيف السبيل إلى الخلاص منها فربما يظن السائل أنه راضٍ ولا يكون هو في الباطن راضيًا؟ فأقول: لهذا ترك المتقون السؤال رأسًا فما كانوا يأخذون من أحد شيئًا أصلًا فكان بشر لا يؤخذ من أحد أصلًا إلا من السري رحمة الله عليهما وقال: لأني علمت أنه يفرح بخروج المال من يده فأنا أعينه على ما يحب، وإنما عظم النكير في السؤال وتأكد الأمر بالتعفف لهذا؛ لأنّ الأذى إنما يحل بضرورة: وهو أن يكون السائل مشرفًا على الهلاك ولم يبق له سبيل إلى الخلاص ولم يجد من يعطيه من غير كراهة وأذى، فيباح له ذلك كما يباح له أكل لحم الخنزير وأكل لحم الميتة، فكان الامتناع طريق الورعين، ومن أرباب القلوب من كان واثقًا ببصيرته في الاطلاع على قرائن الأحوال، فكانوا يأخذون من بعض الناس دون البعض، ومنهم من كان لا يأخذ إلا من أصدقائه، ومنهم

(١) **لا أصل له**: حديث «إنما نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر». لم أجد له أصلا، وكذا قال المزي لما سئل عنه. [انظر كتاب دفاع عن الحديث ص (٢٧)، وقال الألباني: لا وجود له في كتب الحديث المشهورة ولا الأجزاء المنثورة وجزم العراقي أنه لا أصل له].

من كان يأخذ مما يعطى بعضًا ويرد بعضًا، كما فعل رسول الله ﷺ في الكبش والسمن والأقط، وكان هذا يأتيهم من غير سؤال، فإن ذلك لا يكون إلا عن رغبة، ولكن قد تكون رغبته طمعًا في جاه أو طلبًا للرياء والسمعة فكانوا يحترزون من ذلك، فأما السؤال فقد امتنعوا عنه رأسًا إلا في موضعين:

أحدهما: الضرورة فقد سأل ثلاثة من الأنبياء في موضع الضرورة: سليمان، وموسى، والخضر عليهم السلام. ولا شك في أنهم ما سألوا إلا من علموا أنه يرغب في إعطائهم.

والثاني: السؤال من الأصدقاء والإخوان فقد كانوا يأخذون مالهم بغير سؤال واستئذان؛ لأنّ أرباب القلوب علموا أنّ المطلوب رضا القلب لا نطق اللسان، وقد كانوا وثقوا بإخوانهم أنهم كانوا يفرحون بمباسطتهم، فإذا كانوا يسألون الإخوان عند شكهم في اقتدار إخوانهم على ما يريدونه وإلا فكانوا يستغنون عن السؤال، وحدّ إباحة السؤال أن تعلم أنّ المسئول بصفة لو علم ما بك من الحاجة لابتدأك دون السؤال، فلا يكون لسؤالك تأثير إلا بتعريف حاجتك، فأما في تحريكه بالحياء وإثارة داعيته بالحيل فلا، ويتصدى للسائل حالة لا يشك فيها في الرضا بالباطن، وحالة لا يشك في الكراهة، ويعلم ذلك بقرينة الأحوال، فالأخذ في الحالة الأولى حلال طلق، وفي الثانية سحت، ويتردد بين الحالتين أحوال يشك فيها فليستفت قلبه فيها وليترك حزاز القلب فإنه الإثم، وليدع ما يريبه إلى ما لا يريبه، وإدراك ذلك بقرائن الأحوال سهل على من قويت فطنته وضعف حرصه وشهوته، فإن قوي الحرص وضعفت الفطنة تراءى له ما يوافق غرضه، فلا يتفطن للقرائن الدالة على الكراهة، وبهذه الدقائق يطلع على سر قوله ﷺ «إِنَّ أَطْيَبَ مَا أَكَلَ الرَّجُلُ مِنْ كَسْبِهِ» (١)، وقد أوتي جوامع الكلم؛ لأنّ من لا كسب له ولا مال ورثه من كسب أبيه أو أحد قرابته فليأكل من أيدي الناس، وإن أعطي بغير سؤال فإنما يعطى بدينه، ومتى يكون باطنه بحيث لو انكشف لا يعطى بدينه فيكون ما يأخذه حرامًا، وإن أعطي بسؤال فأين من يطيب قلبه بالعطاء إذا سئل؟ وأين من يقتصر في السؤال على حدّ الضرورة، فإذا فتشت أحوال من يأكل من أيدي الناس علمت أنّ جميع ما يأكله أو أكثره سحت وأنّ الطيب هو الكسب الذي اكتسبته بحلالك أنت أو مورّثك، فإذن بعيد أن يجتمع الورع مع الأكل من أيدي الناس، فنسأل الله تعالى أن يقطع طمعنا عن غيره، وأن يغنينا بحلاله عن حرامه، وبفضله عمن سواه بمنه وسعة جوده، فإنه على ما يشاء قدير.

بيان مقدار الغنى المحرم للسؤال:

اعلم أن قوله ﷺ «مَنْ سَأَلَ عَنْ ظَهْرِ غِنًى فَإِنَّمَا يَسْأَلُ جَمْرًا فَلْيَسْتَقِلَّ مِنْهُ أَوْ لِيَسْتَكْثِرْ»

---

(١) صحيح: حديث «إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه». تقدم. [أبو داود: ٣٥٢٨، وابن ماجه: ٢١٣٧، وانظر صحيح الجامع: ٢٢٠٨].

صريح في التحريم، ولكن حدّ الغنى مشكل وتقديره عسير، وليس إلينا وضع المقادير، بل يستدرك ذلك بالتوقيف، وقد ورد في الحديث: «اسْتَغْنُوا بِغِنَى اللَّهِ تَعَالَى عَنْ غَيْرِهِ» قالوا: وما هو؟ قال: «غَدَاءُ يَوْمٍ وَعَشَاءُ لَيْلَةٍ»(١)، وفي حديث آخر: «مَنْ سَأَلَ وَلَهُ خَمْسُونَ دِرْهَمًا أَوْ عِدْلُهَا مِنَ الذَّهَبِ فَقَدْ سَأَلَ إِلْحَافًا»(٢)، وورد في لفظ آخر: «أَرْبَعُونَ دِرْهَمًا» ومهما اختلفت التقديرات وصحت الأخبار فينبغي أن يقطع بورودها على أحوال مختلفة، فإنّ الحق في نفسه لا يكون إلا واحدًا والتقدير ممتنع، وغاية الممكن فيه تقريب، ولا يتم ذلك إلا بتقسيم محيط بأحوال المحتاجين، فنقول: قال رسول الله ﷺ: «لا حَقَّ لابْنَ آدَمَ إلاّ فِي ثَلاث: طَعَامٍ يُقِيمُ صُلْبَهُ وَثَوْبٍ يُوَارِي بِهِ عَوْرَتَهُ، وَبَيْتٍ يُكِنُّهُ فَمَا زَادَ فَهُوَ حِسَابٌ» فلنجعل هذه الثلاث أصلًا في الحاجات لبيان أجناسها والنظر في الأجناس والمقادير والأوقات، فأما الأجناس فهي هذه الثلاث ويلحق بها ما في معناها حتى يلحق بها الكراء للمسافر إذا كان لا يقدر على المشي وكذلك ما يجري مجراه من المهمات ويلحق بنفسه عياله وولده وكل من تحت كفالته كالدابة أيضًا. وأما المقادير فالثوب يراعى فيه ما يليق بذوي الدين وهو ثوب واحد وقميص ومنديل وسراويل ومداس، وأما الثاني من كل جنس فهو مستغن عنه وليقس على هذا أثاث البيت جميعًا، ولا ينبغي أن يطلب رقة الثياب وكون الأواني من النحاس والصفر فيما يكفي فيه الخزف، فإن ذلك مستغنى عنه فيقتصر من العدد على واحد من النوع على أخس أجناسه ما لم يكن في غاية البعد عن العادة. وأما الطعام فقدره في اليوم مدّ وهو ما قدّره الشرع ونوعه ما يقتات ولو كان من الشعير. والأدم على الدوام فضلة، وقطعه بالكلية إضرار، ففي طلبه في بعض الأحوال رخصة. وأما المسكن فأقله ما يجزىء من حيث المقدار وذلك من غير زينة، فأما السؤال للزينة والتوسع فهو سؤال عن ظهر غنى، وأما بالإضافة إلى الأوقات فما يحتاج إليه في الحال من طعام يوم وليلة وثوب يلبسه ومأوى يسكنه فلا شك فيه، فأما سؤاله للمستقبل فهذا له ثلاث درجات.

إحداها: ما يحتاج إليه في غد.

والثانية: ما يحتاج إليه في أربعين يومًا أو خمسين يومًا.

والثالثة: ما يحتاج إليه في السنة، ولنقطع بأن من معه ما يكفيه له ولعياله إن كان له عيال

---

(١) **صحيح**: حديث «استغنوا بغنى الله» قالوا: وما هو؟ قال «غداء يوم وعشاء ليلة». تقدم في الزكاة من حديث سهل بن الحنظلية قالوا ما يغنيه؟ قال «ما يغديه أو يعشيه» ولأحمد من حديث علي بإسناد حسن: قالوا وما ظهر غني؟ قال «عشاء ليلته» وأما اللفظ الذي ذكره المصنف فذكره صاحب الفردوس من حديث أبي هريرة. [أبو داود: ١٦٢٩، وأحمد: ١٧١٧٣، وانظر صحيح الترغيب: ٨٠٥].

(٢) **صحيح**: حديث «من سأل وله خمسون درهما أو عدلها من الذهب فقد سأل إلحافا» وفي لفظ آخر «أربعون درهما». تقدما في الزكاة. [أبو داود: ١٦٢٧، وانظر صحيح أبي داود].

لسنة فسؤاله حرام، فإن ذلك غاية الغنى وعليه ينزل التقدير بخمسين درهمًا في الحديث، فإن خمسة دنانير تكفي المنفرد في السنة إذا اقتصد، أما المعيل فربما لا يكفيه ذلك وإن كان يحتاج إليه قبل السنة، فإن كان قادرًا على السؤال ولا تفوته فرصته فلا يحل له السؤال لأنه مستغن في الحال وربما لا يعيش إلى الغد فيكون قد سأل ما لا يحتاج فيكفيه غداء يوم وعشاء ليلة، وعليه ينزل الخبر الذي ورد في التقدير بهذا القدر.

وإن كان يفوته فرصة السؤال ولا يجد من يعطيه لو أخر فيباح له السؤال، لأنّ أمل البقاء سنة غير بعيد فهو بتأخير السؤال خائف أن يبقى مضطرًا عاجزًا عما يعينه، فإن كان خوف العجز عن السؤال في المستقبل ضعيفًا وكان ما لأجله السؤال خارجًا عن محل الضرورة لم يخل سؤاله عن كراهية، وتكون كراهته بحسب درجات ضعف الاضطرار وخوف الفوت وتراخي المدّة التي فيها يحتاج إلى السؤال، وكل ذلك لا يقبل الضبط وهو منوط باجتهاد العبد ونظره لنفسه بينه وبين الله تعالى، فيستفتي فيه قلبه ويعمل به إن سالكًا طريق الآخرة، وكل من كان يقينه أقوى وثقته بمجيء الرزق في المستقبل أتم وقناعته بقوت الوقت أظهر فدرجته عند الله تعالى أعلى، فلا يكون خوف الاستقبال وقد آتاك الله قوت يومك لك ولعيالك إلا من ضعف اليقين والإصغاء إلى تخويف الشيطان، وقد قال تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥] وقال عز وجل: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾ [البقرة: ٢٦٨] والسؤال من الفحشاء التي أبيحت بالضرورة، وحال من يسأل لحاجة متراخية عن يومه وإن كان مما يحتاج إليه في السنة أشدّ من حال من ملك مالًا موروثًا، وادخره لحاجة وراء السنة، وكلاهما مباحان في الفتوى الظاهرة ولكنهما صادران عن حب الدنيا وطول الأمل وعدم الثقة بفضل الله، وهذه الخصلة من أمهات المهلكات، نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه.

بيان أحوال السائلين:

كان بشر رحمه الله يقول الفقراء ثلاثة: فقير لا يسأل وإن أُعطي لا يأخذ، فهذا مع الروحانيين في عليين. وفقير لا يسأل وإن أُعطي أَخذ، فهذا مع المقرّبين في جنات الفردوس. وفقير يسأل عند الحاجة، فهذا مع الصادقين من أصحاب اليمين.

فإذن قد اتفق كلهم على ذم السؤال وعلى أنه مع الفاقة يحط المرتبة والدرجة.

قال شقيق البلخي لإبراهيم بن أدهم حين قدم عليه من خراسان: كيف تركت الفقراء من أصحابك؟ قال: تركتهم إن أُعطوا شكروا، وإن مُنعوا صبروا، وظن أنه لما وصفهم بترك السؤال قد أثنى عليهم غاية الثناء، فقال شقيق: هكذا تركت كلاب بلخ عندنا، فقال له إبراهيم: فكيف الفقراء عندك يا أبا إسحاق؟ فقال: الفقراء عندنا إن مُنعوا شكروا، وإن أُعطوا آثروا. فقبّل رأسه وقال: صدقت يا أستاذ.

فإذن درجات أرباب الأحوال في الرضا والصبر والشكر والسؤال كثيرة، فلا بدّ لسالك طريق الآخرة من معرفتها ومعرفة انقسامها واختلاف درجاتها، فإنه إذا لم يعلم لم يقدر على الرقي من حضيضها إلى قلاعها، ومن أسفل سافلين إلى أعلى عليين، وقد خلق الإنسان في أحسن تقويم، ثم رد إلى أسفل سافلين، ثم أمر أن يترقى إلى أعلى عليين، ومن لا يميز بين السفل والعلو لا يقدر على الرقي قطعًا، وإنما الشك فيمن عرف ذلك، فإنه ربما لا يقدر عليه، وأرباب الأحوال قد تغلبهم حالة تقتضي أن يكون السؤال مزيدًا لهم في درجاتهم ولكن بالإضافة إلى حالهم فإنّ مثل هذه الأعمال بالنيات، وذلك كما روي أنّ بعضهم رأى أبا إسحاق النوري رحمه الله يمدّ يده ويسأل الناس في بعض المواضع، قال: فاستعظمت ذلك واستقبحته له، فأتيت الجنيد رحمه الله فأخبرته بذلك فقال: لا يعظم هذا عليك، فإنّ النوري لم يسأل الناس إلا ليعطيهم، وإنما سألهم ليثيبهم في الآخرة فيؤجرون من حيث لا يضرهم وكأنه أشار به إلى قوله ﷺ: «يَدُ المُعْطِي هِيَ العُلْيَا» (١).

فقال بعضهم: يد المعطي هي يد الآخذ للمال لأنه يعطي الثواب والقدر له لا لما يأخذه، ثم قال الجنيد: هات الميزان، فوزن مائة درهم ثم قبض قبضة فألقاها على المائة ثم قال: احملها إليه، فقلت في نفسي: إنما يوزن الشيء ليعرف مقداره، فكيف خلط به مجهولًا وهو رجل حكيم؟ واستحييت أن أسأله، فذهبت بالصرة إلى الثوري فقال: هات الميزان، فوزن مائة درهم وقال: ردها عليه وقل له: أنا لا أقبل منك أنت شيئًا وأخذ ما زاد على المائة قال: فزاد تعجبي، فسألته فقال: الجنيد رجل حكيم، يريد أن يأخذ الحبل بطرفيه: وزن المائة لنفسه طلبًا لثواب الآخرة، وطرح عليها قبضة بلا وزن لله عز وجل، فأخذت ما كان لله تبارك وتعالى ورددت ما جعله لنفسه.

قال: فرددتها إلى الجنيد فبكى وقال: أخذ ماله ورد مالنا الله المستعان، فانظر الآن كيف صفت قلوبهم وأحوالهم وكيف خلصت لله أعمالهم حتى كان يشاهد كل واحد منهم قلب صاحبه من غير مناطقة باللسان ولكن بتشاهد القلوب، وتناجي الأسرار، وذلك نتيجة أكل الحلال وخلو القلب عن حب الدنيا والإقبال على الله تعالى بكنه الهمة، فمن أنكر ذلك قبل تجربة طريقه فهو جاهل، كمن ينكر مثلًا كون الدواء مسهلًا قبل شربه. ومن أنكره بعد أن طال اجتهاده حتى بذل كنه مجهوده ولم يصل فأنكر ذلك لغيره كان كمن شرب المسهل فلم يؤثر في حقه خاصة لعلة في باطنه فأخذ ينكر كون الدواء مسهلًا، وهذا وإن كان في الجهل دون الأول ولكنه ليس خاليًا عن حظ واف من الجهل، بل البصير أحد رجلين: إما رجل سلك

---

(١) صحيح: حديث «يد المعطي هي العليا». أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة. [مسلم: ١٠٤٢ عن أبي هريرة وليس فيه أنها «يد المعطي»، مسلم: ١٠٣٣ عن ابن عمر وفيه «اليد العليا المنفقة» ولفظ الحديث عند النسائي: ٢٥٣٢، وانظر صحيح النسائي].

الطريق فظهر له مثل ما ظهر لهم فهو صاحب الذوق والمعرفة وقد وصل إلى عين اليقين، وإما رجل لم يسلك الطريق أو سلك ولم يصل ولكنه آمن بذلك وصدق به فهو صاحب علم اليقين وإن لم يكن واصلًا إلى عين اليقين. ولعلم اليقين أيضًا رتبة وإن كان دون عين اليقين، ومن خلا عن علم اليقين وعين اليقين فهو خارج عن زمرة المؤمنين ويحشر يوم القيامة في زمرة الجاحدين المستكبرين الذين هم قتلى القلوب الضعيفة وأتباع الشياطين. فنسأل الله تعالى أن يجعلنا من الراسخين في العلم القائلين: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران :٧] .

الشطر الثاني من الكتاب في الزهد

وفيه بيان حقيقة الزهد، وبيان فضيلة الزهد، وبيان درجات الزهد وأقسامه، وبيان تفصيل الزهد في المطعم والملبس والمسكن والأثاث وضروب المعيشة، وبيان علامة الزهد.

بيان حقيقة الزهد:

اعلم أن الزهد في الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين، وينتظم هذا المقام من علم وحال وعمل كسائر المقامات؛ لأن أبواب الإيمان كلها كما قال السلف ترجع إلى عقد وقول وعمل، وكأن القول لظهوره أقيم مقام الحال إذ به يظهر الحال الباطن وإلا فليس القول مرادًا لعينه، وإن لم يكن صادرًا عن حال سمي إسلامًا ولم يسم إيمانًا والعلم هو السبب في حال يجري مجرى المثمر، والعمل يجري من الحال مجرى الثمرة، فلنذكر الحال مع كلا طرفيه من العلم والعمل: أما الحال فنعني بها ما يسمى زهدًا وهو عبارة عن انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه، فكل من عدل عن شيء إلى غيره بمعاوضة وبيع وغيره فإنما عدل عنه لرغبته عنه، وإنما عدل إلى غيره لرغبته في غيره؛ فحاله بالإضافة إلى المعدول عنه يسمى زهدًا، وبالإضافة إلى المعدول إليه يسمى رغبة وحبًا، فإذن يستدعي حال الزهد مرغوبًا عنه ومرغوبًا فيه هو خير من المرغوب عنه، وشرط المرغوب عنه أن يكون هو أيضًا مرغوبًا فيه بوجه من الوجوه، فمن رغب عما ليس مطلوبًا في نفسه لا يسمى زاهدًا، إذ تارك الحجر والتراب وما أشبهه لا يسمى زاهدًا، وإنما يسمى زاهدًا من ترك الدراهم والدنانير لأن التراب والحجر ليسا في مظنة الرغبة، وشرط المرغوب فيه أن يكون عنده خيرًا من المرغوب عنه حتى تغلب هذه الرغبة، فالبائع لا يقدم على البيع إلا والمشترى عنده خير من المبيع، فيكون حاله بالإضافة إلى المبيع زاهدًا فيه، وبالإضافة إلى العوض عنه رغبة فيه وحبًا، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ [يوسف :٢٠] معناه باعوه، فقد يطلق الشراء بمعنى البيع ووصف إخوة يوسف بالزهد فيه، إذ طمعوا أن يخلو لهم

وجه أبيهم؛ وكان ذلك عندهم أحب إليهم من يوسف فباعوه طمعًا في العوض، فإذن كل من باع الدنيا بالآخرة فهو زاهد في الدنيا، وكل من باع الآخرة بالدنيا فهو أيضًا زاهد ولكن في الآخرة، ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الزهد بمن يزهد في الدنيا، كما خصص اسم الإلحاد بمن يميل إلى الباطل خاصة وإن كان هو للميل في وضع اللسان.

ولما كان الزهد رغبة عن محبوب بالجملة لم يتصوّر إلا بالعدول إلى شيء هو أحب منه، وإلا فترك المحبوب بغير الأحب محال، والذي يرغب عن كل ما سوى الله تعالى حتى الفراديس ولا يحب إلا الله تعالى فهو الزاهد المطلق، والذي يرغب عن كل حظ ينال في الدنيا ولم يزهد في مثل تلك الحظوظ في الآخرة بل طمع في الحور والقصور والأنهار والفواكه فهو أيضًا زاهد ولكنه دون الأول، والذي يترك من حظوظ الدنيا البعض دون البعض كالذي يترك المال دون الجاه أو يترك التوسع في الأكل ولا يترك التجمل في الزينة فلا يستحق اسم الزاهد مطلقًا، ودرجته في الزهاد درجة من يتوب عن بعض المعاصي في التائبين، وهو زهد صحيح، كما أنّ التوبة عن بعض المعاصي صحيحة، فإن التوبة عبارة عن ترك المحظورات، والزهد عبارة عن ترك المباحات التي هي حظ النفس، ولا يبعد أن يقدر على ترك بعض المباحات دون بعض كما لا يبعد ذلك في المحظورات، والمقتصر على ترك المحظورات لا يسمى زاهدًا وإن كان قد زهد في المحظور وانصرف عنه، ولكن العادة تخصص هذا الاسم بترك المباحات، فإذن الزهد عبارة عن رغبته عن الدنيا عدولًا إلى الآخرة، أو عن غير الله تعالى عدولًا إلى الله تعالى وهي الدرجة العليا، وكما يشترط في المرغوب فيه أن يكون خيرًا عنده فيشترط في المرغوب عنه أن يكون مقدورًا عليه، فإن ترك ما لا يقدر عليه محال، وبالترك يتبين زوال الرغبة، ولذلك قيل لابن المبارك: يا زاهد، فقال: الزاهد عمر بن عبد العزيز إذ جاءته الدنيا راغمة فتركها، وأما أنا ففيماذا زهدت؟.

وأما العلم الذي هو مثمر لهذه الحال فهو العلم بكون المتروك حقيرًا بالإضافة إلى المأخوذ كعلم التاجر بأن العوض خير من المبيع فيرغب فيه، وما لم يتحقق هذا العلم لم يتصوّر أن تزول الرغبة عن المبيع، فكذلك من عرف أنّ ما عند الله باق وأنّ الآخرة خير وأبقى، أي لذاتها خير في أنفسها وأبقى، كما تكون الجواهر خيرًا وأبقى من الثلج مثلًا.

ولا يعسر على مالك الثلج بيعه بالجواهر واللآلىء، فهكذا مثال الدنيا والآخرة، فالدنيا كالثلج الموضوع في الشمس لا يزال في الذوبان إلى الانقراض، والآخرة كالجوهر الذي لا فناء له، فبقدر قوّة اليقين والمعرفة بالتفاوت بين الدنيا والآخرة تقوى الرغبة في البيع والمعاملة، حتى إنّ من قوي يقينه يبيع نفسه وماله، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة:١١١]ثم بيّن أن صفقتهم رابحة فقال تعالى: ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ﴾ [التوبة:١١١]فليس يحتاج من العلم في الزهد إلا

إلى هذا القدر، وهو أن الآخرة خير وأبقى وقد يعلم ذلك من لا يقدر على ترك الدنيا، إما لضعف علمه ويقينه، وإما لاستيلاء الشهوة في الحال عليه وكونه مقهورًا في يد الشيطان، وإما لاغتراره بمواعيد الشيطان في التسويف يومًا بعد يوم إلى أن يختطفه الموت ولا يبقى معه إلا الحسرة بعد الفوت: وإلى تعريف خساسة الدنيا الإشارة بقوله تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء :٧٧] وإلى تعريف نفاسة الآخرة الإشارة بقوله عز وجل: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ [القصص :٨٠] فنبه على أن العلم بنفاسة الجوهر هو المرغب عن عوضه، ولما لم يتصوّر الزهد إلا بمعاوضة ورغبة عن المحبوب في أحب منه قال رجل في دعائه: اللهم أرني الدنيا كما تراها، فقال له النبي ﷺ: «لا تَقُلْ هكَذَا وَلكِنْ قُلْ: أَرِنِي الدُّنْيَا كَمَا أَرَيْتَهَا الصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكَ»(١)، وهذا لأن الله تعالى يراها حقيرة كما هي، وكل مخلوق فهو بالإضافة إلى جلاله حقير.

والعبد يراها حقيرة في نفسه بالإضافة إلى ما هو خير له، ولا يتصور أن يرى بائع الفرس وإن رغب عنه فرسه كما يرى حشرات الأرض مثلًا؛ لأنه مستغن عن الحشرات أصلًا وليس مستغنيًا عن الفرس، والله تعالى غني بذاته عن كل ما سواه، فيرى الكل في درجة واحدة بالإضافة إلى جلاله، ويراه متفاوتًا بالإضافة إلى غيره، والزاهد هو الذي يرى تفاوته بالإضافة إلى نفسه لا إلى غيره، وأما العمل الصادر عن حال الزهد فهو ترك واحد لأنه بيع ومعاملة واستبدال للذي هو خير بالذي هو أدنى، فكما أن العمل الصادر من عقد البيع هو ترك المبيع وإخراجه من اليد وأخذ العوض، فكذلك الزهد يوجب ترك المزهود فيه بالكلية وهي الدنيا بأسرها مع أسبابها ومقدِّماتها وعلائقها، فيخرج من القلب حبها ويدخل حب الطاعات ويخرج من العين واليد ما أخرجه من القلب يوظف على اليد والعين وسائر الجوارح وظائف الطاعات، وإلا كان كمن سلم المبيع ولم يأخذ الثمن، فإذا وفى بشرط الجانبين في الأخذ والترك فليستبشر ببيعه الذي بايع به؛ فإن الذي بايعه بهذا البيع وفى بالعهد، فمن سلم حاضرًا في غائب وسلم الحاضر وأخذ يسعى في طلب الغائب سلم إليه الغائب حين فراغه من سعيه إن كان العاقد ممن يوثق بصدقه وقدرته ووفائه بالعهد، وما دام ممسكًا للدنيا لا يصح زهده أصلًا، ولذلك لم يصف الله تعالى إخوة يوسف بالزهد في بنيامين وإن كانوا قد قالوا: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ [يوسف :٨] وعزموا على إبعاده كما عزموا على يوسف حتى تشفع فيه أحدهم فترك، ولا وصفهم أيضًا بالزهد في يوسف عند العزم على إخراجه، بل عند التسليم والبيع، فعلامة الرغبة الإمساك، وعلامة الزهد الإخراج، فإن أخرجت عن اليد بعض

(١) حديث: قال رجل: اللهم أرني الدنيا كما تراها، فقال له «لا تقل هكذا، ولكن قل: أرني الدنيا كما أريتها الصالحين من عبادك». ذكره صاحب الفردوس مختصرا «اللهم أرني الدنيا كما تريها صالح عبادك» من حديث أبي القصير ولم يخرجه ولده.

الدنيا دون البعض فأنت زاهد فيما أخرجت فقط ولست زاهدًا مطلقًا، وإن لم يكن لك مال ولم تساعدك الدنيا دون البعض فأنت زاهد فيما أخرجت فقط ولست زاهدًا مطلقًا، وإن لم يكن لك مال ولم تساعدك الدنيا لم يتصور منك الزهد؛ لأن ما لا يقدر عليه لا يقوى على تركه، وربما يستهويك الشيطان بغروره ويخيل إليك أن الدنيا وإن لم تأتك فأنت زاهد فيها، فلا ينبغي أن تتدلى بحبل غروره دون أن تستوثق وتستظهر بموثق غليظ من الله، فإنك إذا لم تجرّب حال القدرة فلا تثق بالقدرة على الترك عندها، فكم من ظان بنفسه كراهة المعاصي عند تعذرها، فلما تيسرت له أسبابها من غير مكدّر ولا خوف من الخلق وقع فيها، وإذا كان هذا غرور النفس في المحظورات، فإياك أن تثق بوعدها في المباحات، والموثق الغليظ الذي تأخذه عليها، أن تجرّبها مرة بعد مرة في حال القدرة، فإذا وفت بما وعدت على الدوام مع انتفاء الصوارف والأعذار ظاهرًا وباطنًا فلا بأس أن تثق بها وثوقًا ما، ولكن تكون من تغيرها أيضًا على حذر، فإنها سريعة النقص للعهد، قريبة الرجوع إلى مقتضى الطبع.

وبالجملة، فلا أمان منها إلا عند الترك بالإضافة إلى ما ترك فقط وذلك عند القدرة.

قال ابن أبي ليلى لابن شبرمة: ألا ترى إلى ابن الحائك هذا لا نفتي في مسألة إلا رد علينا ــ يعني أبا حنيفة ــ فقال ابن شبرمة: لا أدري أهو ابن الحائك أم ما هو؟ لكن أعلم أن الدنيا غدت إليه فهرب منها، وهربت منا فطلبناها، وكذلك قال جميع المسلمين على عهد رسول الله ﷺ: إنا نحب ربنا ولو علمنا في أي شيء محبته لفعلناه حتى نزل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [النساء: ٦٦] (١). قال ابن مسعود رحمه الله: قال لي رسول الله ﷺ: «أَنْتَ مِنْهُمْ» - يعني من القليل - قال: وما عرفت أن فينا من يحب الدنيا حتى نزل قوله تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢] (٢). واعلم أنه ليس من الزهد ترك المال وبذله على سبيل السخاء والفتوّة وعلى سبيل استمالة القلوب وعلى سبيل الطمع، فذلك كله من محاسن العادات ولكن لا مدخل لشيء منه في العبادات، وإنما الزهد أن تترك الدنيا لعلمك بحقارتها بالإضافة إلى نفاسة الآخرة، فأما كل نوع من الترك فإنه يتصوّر ممن لا يؤمن بالآخرة؛ فذلك قد يكون مروءة وفتوة وسخاء وحسن خلق، ولكن لا يكون زهدًا؛ إذ حسن الذكر وميل القلوب من حظوظ العاجلة وهي ألذ وأهنأ من المال، وكما أن ترك المال على سبيل السلم طمعًا في العوض ليس من الزهد، فكذلك تركه طمعًا في الذكر والثناء والاشتهار بالفتوة

---

(١) حديث قال المسلمون: إنا نحب ربنا ولو علمنا في أي شيء محبته لفعلناه، حتى نزل قوله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٦٦] الآية: لم أقف له على أصل.

(٢) حديث ابن مسعود: ما عرفت أن فينا من يحب الدنيا حتى نزل قوله تعالى ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾ [آل عمران: ١٥٢] الآية . أخرجه البيهقي في دلائل النبوة بإسناد حسن.

والسخاء واستثقالًا له لما في حفظ المال من المشقة والعناء. والحاجة إلى التذلل للسلاطين والأغنياء ليس من الزهد أصلًا، بل هو استعجال حظ آخر للنفس؛ بل الزاهد من أتته الدنيا راغمة صفوًا عفوًا وهو قادر على التنعم بها من غير نقصان جاه وقبح اسم ولا فوات حظ للنفس، فتركها خوفًا من أن يأنس بها، فيكون آنسًا بغير الله ومحبًا لما سوى الله، ويكون مشركًا في حب الله تعالى غيره. أو تركها طمعًا في ثواب الله في الآخرة فترك التمتع بأشربة الدنيا طمعًا في أشربة الجنة، وترك التمتع بالسراري والنسوان طمعًا في زينة الجنة، وترك المطاعم اللذيذة طمعًا في فواكه الجنة وخوفًا من أن يقال له ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأحقاف: ٢٠] فآثر في جميع ذلك ما وعد به في الجنة على ما تيسر له في الدنيا عفوًا صفوًا لعلمه بأن ما في الآخرة خير وأبقى، وأن ما سوى هذا فمعاملات دنيوية لا جدوى لها في الآخرة أصلًا.

بيان فضيلة الزهد:

قال الله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾ [القصص: ٧٩] إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ﴾ [القصص: ٨٠] فَنَسَبَ الزُّهْدَ إِلَى العُلَمَاءِ وَوَصَفَ أَهْلَهُ بِالعِلْمِ وَهُوَ غَايَةُ الثَّنَاءِ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ [القصص: ٥٤] وجاء في التفسير على الزهد في الدنيا وقال عز وجل: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧] قيل: معناه أيهم أزهد فيها، فوصف الزهد بأنه من أحسن الأعمال. وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١] وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٣] فوصف الكفار بذلك، فمفهومه أن المؤمن هو الذي يتصف بنقيضه وهو أن يستحب الآخرة على الحياة الدنيا.

وأما الأخبار: فما ورد منها في ذم الدنيا كثير، وقد أوردنا بعضها في كتاب ذم الدنيا مع ربع المهلكات، إذ حب الدنيا من المهلكات، ونحن الآن نقتصر على فضيلة بغض الدنيا فإنه من المنجيات، وهو المعنى بالزهد، وقد قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَصْبَحَ وَهَمُّهُ الدُّنْيَا شَتَّتَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ وَفَرَّقَ عَلَيْهِ ضَيْعَتَهُ وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلاَّ مَا كُتِبَ لَهُ، وَمَنْ أَصْبَحَ وَهَمُّهُ الآخِرَةُ جَمَعَ اللَّهُ لَهُ هَمَّهُ وَحَفِظَ عَلَيْهِ ضَيْعَتَهُ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ» (١)، وقال ﷺ: «إذا رَأَيْتُمُ العَبْدَ وَقَدْ أُعْطِيَ صَمْتًا وَزُهْدًا فِي الدُّنْيَا فَاقْتَرِبُوا مِنْهُ فَإِنَّهُ يُلَقَّى

(١) صحيح: حديث «من أصبح وهمه الدنيا شتت الله عليه أمره». أخرجه ابن ماجه من حديث زيد بن ثابت بسند جيد والترمذي من حديث أنس بسند ضعيف نحوه. [الترمذي: ٢٤٦٥، وابن ماجه: ٤١٠٥، وانظر صحيح الترغيب: ٣١٦٨].

الحِكْمَةَ» [١]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة:٢٦٩] ولذلك قيل: من زهد في الدنيا أربعين يومًا أجرى الله ينابيع الحكمة في قلبه وأنطق بها لسانه.

وعن بعض الصحابة أنه قال: قلنا: يا رسول الله، أي الناس خير؟ قال: «كُلُّ مُؤْمِنٍ مَخْمُومِ القَلْبِ صَدُوقِ اللِّسَانِ» قلنا يا رسول الله وما مخموم القلب؟ قال: «التَّقِيُّ النَّقِيُّ الَّذِي لا غِلَّ فِيهِ وَلا غِشَّ وَلا بَغْيَ وَلا حَسَدَ» قلنا: يا رسول الله، فمن على أثره؟ قال: «الذي يشنأ الدنيا ويحب الآخرة» [٢]، ومفهوم هذا أن شر الناس الذي يحب الدنيا. وقال ﷺ: «إِنْ أَرَدْتَ أَنْ يُحِبَّكَ اللَّهُ فَازْهَدْ فِي الدُّنْيَا» [٣]، فجعل الزهد سببًا للمحبة، فمن أحبه الله تعالى فهو في أعلى الدرجات، فينبغي أن يكون الزهد في الدنيا من أفضل المقامات، ومفهومه أيضًا أن محب الدنيا متعرّض لبغض الله تعالى، وفي خبر من طريق أهل البيت: «الزهد والورع يجولان في القلوب كل ليلة، فإن صادفا قلبًا فيه الإيمان والحياء أقاما فيه وإلا ارتحلا» [٤]، ولما قال حارثة لرسول الله ﷺ: أنا مؤمن حقًا قال: «وَمَا حَقِيقَةُ إِيمَانِكَ؟» قال: عزفت نفسي عن الدنيا فاستوى عندي حجرها وذهبها، وكأني بالجنة والنار، وكأني بعرش ربي بارزًا، فقال ﷺ: «عَرَفْتَ فَالْزَمْ، عَبْدٌ نَوَّرَ اللَّهُ قَلْبَهُ بِالإِيمَانِ» [٥]، فانظر كيف بدأ في إظهار حقيقة الإيمان بعزوف النفس عن الدنيا وقرنه باليقين، وكيف زكاه رسول الله ﷺ إذ قال: عبد نوّر الله قلبه بالإيمان. ولما سئل رسول الله ﷺ عن معنى الشرع في قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام:١٢٥] وقيل له: ما هذا الشرح؟ قال: «إِنَّ النُّورَ إِذا دَخَلَ فِي القَلْبِ انْشَرَحَ لَهُ الصَّدْرُ وَانْفَسَحَ» قيل: يا رسول لله. وهل لذلك من علامة؟ قال: «نَعَمْ، التَّجَافِي عَنْ دَارِ الغُرُورِ، وَالإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الخُلُودِ، وَالاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نُزُولِهِ» [٦]، فانظر كيف جعل الزهد شرطًا للإسلام وهو التجافي عن دار الغرور؟ وقال ﷺ: «اسْتَحْيُوا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الحَيَاءِ»

(١) **ضعيف**: حديث «إذا رأيتم العبد قد أوتي صمتا وزهدا في الدنيا فاقتربوا منه فإنه يلقي الحكمة». رواه ابن ماجه من حديث أبي خلاد بسند فيه ضعف. [ابن ماجه: ٤١٠١، وانظر ضعيف ابن ماجه].

(٢) **صحيح**: حديث: قلنا يا رسول الله وما محموم القلب؟ قال «التقي النقي». رواه ابن ماجه بإسناد صحيح من حديث عبد الله بن عمرو دون قوله: يا رسول الله فمن على أثره، وقد تقدم، ورواه بهذه الزيادة بالإسناد المذكور الخرائطي في مكارم الأخلاق. [ابن ماجه: ٤٢١٦، وانظر صحيح الترغيب: ٢٨٨٩].

(٣) **حسن لغيره**: حديث إن أردت أن يحبك الله فازهد في الدنيا». رواه ابن ماجه من حديث سهل بن سعد بسند ضعيف نحوه، وقد تقدم. [ابن ماجه: ٤١٠٢، وانظر صحيح الترغيب: ٣٢١٣].

(٤) حديث «الزهد والورع يجولان في القلب كل ليلة، فإن صادفا قلبا فيه الإيمان والحياة أقاما فيه وإلا ارتحلا». لم أجد له أصلا.

(٥) حديث: لما قال له حارثة: أنا مؤمن حقا، فقال «وما حقيقة إيمانك؟ » قال: عزفت نفسي عن الدنيا فاستوى عندي حجرها وذهبها، وكأني بالجنة والنار، وكأني بعرش ربي بارزا، فقال ﷺ «عرفت فالزم عبد نور الله قلبه بالإيمان». أخرجه البزار من حديث أنس، والطبراني من حديث الحارث بن مالك، وكلا الحديثين ضعيف.

(٦) **ضعيف**: حديث: سئل عن قوله تعالى ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام :١٢٥] . أخرجه الحاكم، وقد تقدم. [انظر المشكاة: ٥٢٢٨].

قالوا: إنا لنستحيي منه تعالى، فقال: «لَيْسَ كَذلِكَ تَبْنُونَ ما لا تَسْكنُونَ، وَتَجْمَعُونَ مَا لا تَأْكلُونَ» (١) ، فبين أن ذلك يناقض الحياء من الله تعالى، ولما قدم عليه بعض الوفود قالوا: إنا مؤمنون.

قال: «وَمَا عَلاَمَةُ إيمَانِكُمْ؟» فذكروا الصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء والرضا بمواقع القضاء وترك الشماتة بالمصيبة إذا نزلت بالأعداء، فقال عليه الصلاة والسلام: «إنْ كُنْتُمْ كَذَلِكَ فَلاَ تَجْمَعُوا مَا لاَ تَأْكُلُونَ وَلاَ تَبْنُوا مَا لاَ تَسْكِنُونَ، وَلاَ تَنَافَسُوا فِيمَا عَنْهُ تَرْحَلُونَ» (٢) ، فجعل الزهد تكملة لإيمانهم. وقال جابر رضي الله عنه: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «مَنْ جَاءَ بِلاَ إله إلاَّ اللَّهُ لا يَخْلِطَ بِهَا غَيْرَها وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ» ، فقام إليه علي كرّم الله وجهه، فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما لا يخلط بها غيرها؟ صفه لنا فسره لنا، فقال: «حُبُّ الدُّنْيَا طَلَبًا لَهَا وَاتِّبَاعًا لَهَا، وَقَوْمٌ يَقُولُونَ قَوْلَ الأَنْبِيَاءِ وَيَعْمَلونَ عَملَ الجَبَابِرَةِ، فَمَنْ جَاءَ بِلا إلهَ إلاَّ اللَّهُ لَيْسَ فِيها شَيْءٌ مِنْ هذَا وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ» (٣) وفي الخبر: «السَّخَاءُ مِنَ اليَقِينِ وَلا يَدْخُلُ النَّارَ مُوقِنٌ، وَالبُخْلُ مِنَ الشَّكِّ وَلا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ شَكَّ» (٤) ، وقال ﷺ أيضًا: «السخي قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة، والبخيل بعيد من الله بعيد من الناس قريب من النار» (٥) ، والبخل ثمرة الرغبة في الدنيا، والسخاء ثمرة الزهد. والثناء على الثمرة ثناء على المثمر لا محالة.

وروي عن ابن المسيب عن أبي ذرّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ زَهِدَ فِي الدُّنْيَا أَدْخَلَ اللَّهُ الحِكْمَةَ قَلْبَهُ فَأَنْطَقَ بِها لِسَانَهُ وَعَرَّفَهُ دَاءَ الدُّنْيَا وَدَوَاءَهَا وَأَخْرَجَهُ مِنْها سَالِمًا إلى دَارِ السَّلاَمِ» (٦) ، وروي أنه ﷺ مرَّ في أصحابه بعشار من النوق حفل وهي الحوامل وكانت

---

(١) حديث «استحيوا من الله حق الحياة». رواه الطبراني من حديث أم الوليد بنت عمر بن الخطاب بإسناد ضعيف. [الشطر الأول عند الترمذي: ٢٤٥٨، وانظر صحيح الترغيب: ١٧٢٤، وقال الألباني: حسن لغيره، والشطر الثاني «تبنون مالا . . . .» هو جزء من الحديث التالي، وقال الألباني: منكر كما سيأتي، ولم أقف عليه كاملا، ولم أقف عليه عند الطبراني].

(٢) منكر: حديث: لما قدم عليه بعض الوفود قالوا: إنا مؤمنون. قال «وما علامة إيمانكم؟». رواه الخطيب وابن عساكر في تاريخهما بإسناد ضعيف من حديث جابر. [انظر كتاب الإيمان لابن تيمية، وقال الألباني: منكر].

(٣) حديث جابر «من جاء بلا إله إلا الله لا يخلط معها شيئا وجبت له الجنة». لم أره من حديث جابر، وقد رواه الترمذي الحكيم في النوادر من حديث زيد بن أرقم بإسناد ضعيف.

(٤) حديث السخاء من اليقين ولا يدخل النار موقن». ذكره صاحب الفردوس من حديث أبي الدرداء ولم يخرجه ولده في مسنده.

(٥) ضعيف: حديث «السخي قريب من الله». أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة، وقد تقدم. [الترمذي: ١٩٦١، وانظر ضعيف الترغيب: ١٥٥٥].

(٦) ضعيف: حديث أبي ذر «من زهد في الدنيا أدخل الله الحكمة قلبه». لم أر من حديث أبي ذر، ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب ذم الدنيا من حديث صفوان بن سليم مرسلا، ولابن عدي في الكامل من حديث أبي موسى الأشعري «من زهد في الدنيا أربعين يوما وأخلص فيها العبادة أجرى الله ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه» وقال

من أحب أموالهم إليهم وأنفسها عندهم لأنها تجمع الظهر واللحم واللبن والوبر، ولعظمها في قلوبهم قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾[التكوير :٤] قال: فأعرض عنها رسول الله ﷺ وغض بصره، فقيل له: يا رسول الله هذه أنفس أموالنا لم لا تنظر إليها؟ فقال: «قَدْ نَهَانِي اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ» ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ﴾[طه :١٣١] الآية[١] . وروى مسروق عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله؛ ألا تستطعم الله فيطعمك؟ قالت: وبكيت لما رأيت به من الجوع؟ فقال: «يا عائشة؛ والذي نفسي بيده لو سألت ربي أن يجري معي جبال الدنيا ذهبًا لأجراها حيث شئت من الأرض؛ ولكن اخترت جوع الدنيا على شبعها وفقر الدنيا على غناها وحزن الدنيا على فرحها، يا عائشة إن الدنيا لا تنبغي لمحمد ولا لآل محمد، يا عائشة إن الله لم يرض لأولي العزم من الرسل إلا الصبر على مكروه الدنيا والصبر عن محبوبها، ثم لم يرض لي إلا أن يكلفني ما كلفهم، فقال: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾[الأحقاف :٣٥] ، والله ما لي بد من طاعته وإني والله لأصبرنّ كما صبروا بجهدي ولا قوّة إلا بالله»[٢] .

وروي عن عمر رضي الله عنه : أنه حين فتح عليه الفتوحات قالت له ابنته حفصة رضي الله عنها: البس ألين الثياب إذا وفدت عليك الوفود من الآفاق، ومر بصنعة طعام تطعمه وتطعم من حضر، فقال عمر: يا حفصة، ألست تعلمين أن أعلم الناس بحال الرجل أهل بيته؟ فقالت: بلى.

قال : ناشدتك الله، هل تعلمين أن رسول الله ﷺ لبث في النبوّة كذا وكذا سنة لم يشبع هو ولا أهل بيته غدوة إلا جاعوا عشية ولا شبعوا عشية إلا جاعوا غدوة، وناشدتك الله، هل تعلمين أن النبي ﷺ لبث في النبوّة كذا وكذا سنة لم يشبع من التمر هو وأهله حتى فتح الله عليه خيبر؟ وناشدتك الله، هل تعلمين أن رسول الله ﷺ قرّبتم إليه يومًا طعامًا على مائدة فيها ارتفاع فشق ذلك عليه حتى تغير لونه أمر بالمائدة فرفعت ووضع الطعام على دون ذلك أو وضع على الأرض؟ وناشدتك الله، هل تعلمين أنّ رسول الله ﷺ كان ينام على عباءة مثنية

حديث منكر. وقال الذهبي باطل: ورواه أبو الشيخ في كتاب الثواب وأبو نعيم في الحلية مختصرا من حديث أبي أيوب «من أخلص لله» وكلها ضعيفة. [انظر ضعيف الجامع: ٥٣٦٩].

(١) حديث مر في أصحابه بعشار من النوق حفل» ثم تلا قوله تعالى ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ﴾ [الحجر: ٨٨] الآية». لم أجد له أصلا.

(٢) حديث مسروق عن عائشة قلت يا رسول الله، ألا تستطعم ربك فيطعمك، قالت وبكيت لما رأيت به من الجوع، فقال يا عائشة». أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من طريق أبي عبد الرحمن السلمي من رواية عباد بن عباد عن مجالد عن الشعبي عن مسروق مختصرا «يا عائشة إن الله لم يرض من أولى العزم من الرسل إلا الصبر على مكروهها والصبر عن محبوبها ثم لم يرض إلا أن كلفني ما كلفهم، فقال تعالى ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] ومجالد مختلف في الاحتجاج به.

فثنيت له ليلة أربع طاقات فنام عليها فلما استيقظ قال: «مَنَعْتُمُوني قِيَامَ اللَّيْلَةِ بِهَذِهِ العَبَاءَةِ اثْنُوهَا بِاثْنَيْنِ كَمَا كُنْتُمْ تَثْنُونَهَا» ؟ وناشدتك الله، هل تعلمين أنّ رسول الله ﷺ كان يضع ثيابه لتغسل فيأتيه بلال فيؤذنه بالصلاة فما يجد ثوبًا يخرج به إلى الصلاة حتى تجف ثيابه فيخرج بها إلى الصلاة؟ وناشدتك الله، هل تعلمين أنّ رسول الله ﷺ صنعت له امرأة من بني ظفر كساءين إزارًا ورداء وبعثت إليه بأحدهما قبل أن يبلغ الآخر، فخرج إلى الصلاة وهو مشتمل به ليس عليه غيره وقد عقد طرفيه إلى عنقه فصلى كذلك؟ فما زال يقول حتى أبكاها وبكى عمر رضي الله عنه وانتحب حتى ظننا أن نفسه ستخرج [(١)]. وفي بعض الروايات زيادة من قول عمر وهو أنه قال: كان لي صاحبان سلكا طريقًا، فإن سلكت غير طريقهما سلك بي طريق غير طريقهما، وإني والله سأصبر على عيشهما الشديد لعلي أدرك معهما عيشهما الرغيد.

وعن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: «لَقَدْ كَانَ الأَنْبِيَاءُ قَبْلِي يُبْتَلَى أَحَدُهُمْ بِالفَقْرِ فَلا يَلْبَسُ إلاَّ العَبَاءَةَ، وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيُبْتَلَى بِالقَمْلِ حَتَّى يَقْتُلَهُ وَكَانَ ذلِكَ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ العَطَاءِ إِلَيْكُمْ» [(٢)].

وعن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: لما ورد موسى عليه السلام ماء مدين كانت خضرة البقل ترى في بطنه من الهزال؛ فهذا ما كان قد اختاره أنبياء الله ورسله وهم أعرف خلق الله

---

(١) حديث: أن عمر لما فتحت عليه الفتوحات قالت له حفصة: البس الثياب إذا قدمت عليك الوفود.لم أجد هكذا مجموعا في حديث، وهو مفرق في عدة أحاديث، فروى البزار من حديث عمران بن حصين قال: ما شبع رسول الله ﷺ وأهله غدا وعشاء من خبز وشعير حتى لقي ربه، وفيه عمرو بن عبد الله القدري متروك الحديث. وللترمذي من حديث عائشة قالت: «ما أشبع من طعام فأشاء أن أبكي إلا بكيت، قلت: لم؟ قالت: أذكر الحال التي فارق رسول الله ﷺ الدنيا عليها، والله ما شبع من خبز ولحم مرتين في يوم» وقال حديث حسن، [الترمذي: ٢٣٥٦، وانظر ضعيف الترغيب: ١٨٩٨، وقال الألباني: منكر]. وللشيخين من حديثهما: «ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة من طعام ثلاث ليال تباعا حتى قبض» [البخاري: ٥٤١٦، ومسلم: ٢٩٧٠]. وللبخاري من حديث أنس: «كان لا يأكل على خوان... الحديث» [البخاري: ٥٣٨٦]، تقدم في آداب الأكل، وللترمذي في الشمائل من حديث حفصة أنها لما سئلت: «ما كان فراش النبي ﷺ؟ مسح نثنيه ثنتين فينام عليه... الحديث» [انظر الشمائل، وقال الألباني: ضعيف جدًا]. ولابن سعد في الطبقات من حديث عائشة: أنها كانت تفرش للنبي ﷺ عباءة باثنتين... الحديث. وتقدما في آداب المعيشة. وللبزار من حديث أبي الدرداء قال: «كان رسول الله ﷺ لا ينخل له الدقيق ولم يكن له إلا قميص واحد» [انظر ضعيف الترغيب: ١٩٠٥، وقال الألباني: موضوع]. وقال: لا نعلم يروى بهذا اللفظ إلا بهذا الإسناد. قال يونس بن بكير: قد حدث عن سعيد بن ميسرة البكري بأحاديث لم يتابع عليها واحتملت على ما فيها. قلت: فيه سعيد بن ميسرة فقد كذبه يحيى القطان وضعفه البخاري وابن حبان وابن عدي وغيرهم. ولابن ماجه من حديث عبادة بن الصامت صلى في شملة قد عقد عليها زاد الفطريفي في جزئه المشهور: فعقدها في عنقه ما عليه غيرها وإسناده ضعيف، وتقدم في آداب المعيشة[عند ابن ماجه: ٣٥٥٢، وانظر ضعيف ابن ماجه].

(٢) صحيح: حديث أبي سعيد الخدري: كان الأنبياء قبلي يبتلي أحدهم بالفقر فلا يجد إلا العباءة. بإسناد صحيح في أثناء حديث أوله: دخلت على النبي ﷺ وهو يوعك دون قوله: وإن كان أحدهم ليبتلي بالقمل. [انظر صحيح الترغيب: ٣٤٠٣، وفيه قوله: «كان أحدهم ليبتلى بالقمل»].

بالله وبطريق الفوز في الآخرة.

وفي حديث عمر رضي الله عنه أنه قال: لما نزل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤] قال ﷺ: «تبًّا لِلدُّنْيَا تبًّا لِلدِّينارِ وَالدِّرْهَمِ» فقلنا: يا رسول الله نهانا الله عن كنز الذهب والفضة، فأي شيء ندخر؟ فقال ﷺ: «لِيَتَّخِذْ أَحَدُكُمْ لِسَانًا ذَاكِرًا وَقَلْبًا شَاكِرًا وَزَوْجَةً صَالِحَةً تُعِينُهُ عَلَى أَمْرِ آخِرَتِهِ» (١).

وفي حديث حذيفة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «مَنْ آثَرَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ ابْتَلاهُ اللَّهُ بِثَلاثٍ: هَمًّا لا يُفَارِقُ قَلْبَهُ أَبَدًا وَفَقْرًا لا يَسْتَغْنِي أَبَدًا وَحِرْصًا لا يَشْبَعُ أَبَدًا» (٢).

وقال النبي ﷺ: «لا يَسْتَكْمِلُ العَبْدُ الإيمَانَ حَتَّى يَكُونَ أَنْ لا يُعْرَفَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يُعْرَفَ؛ وَحَتَّى يَكُونَ قِلَّةُ الشَّيْءِ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ كَثْرَتِهِ» (٣).

وقال المسيح: «الدُّنْيَا قَنْطَرَةٌ فَاعْبُرُوهَا ولا تَعْمُرُوهَا». وقيل له: يا نبي الله لو أمرتنا أن نبني بيتًا نعبد الله فيه؟ قال: «اذْهَبُوا فَابْنُوا بَيْتًا عَلَى المَاءِ»، فقالوا: كيف يستقيم بنيان على الماء؟ قال: «وَكَيْفَ تَسْتَقِيمُ عِبَادَةٌ مَعَ حُبِّ الدُّنْيَا»؟.

وقال نبينا ﷺ: «إِنَّ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ عَرَضَ عَلَيَّ أَنْ يَجْعَلَ لِي بَطْحَاءَ مَكَّةَ ذَهَبًا فَقُلْتُ: لاَ يا رَبِّ وَلَكِنْ أَجُوعُ يَوْمًا وَأَشْبَعُ يَوْمًا، فَأَمَا اليَوْمُ الَّذِي أَجُوعُ فِيهِ فَاتَضَرَّعُ إِلَيْكَ وَأَذْعُوكَ، وَأَمَا اليَوْمُ الَّذِي أَشْبَعُ فِيهِ فَأَحْمَدُكَ وَأُثْنِي عَلَيْكَ».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم يمشي وجبريل معه فصعد على الصفا فقال له النبي ﷺ: «يا جِبْرِيلُ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ مَا أَمْسَى لآلِ مُحَمَّدٍ كَفٌّ سَوِيقٍ وَلا سَفَّةُ دَقِيقٍ، فَلَمْ يَكُنْ كَلامُهُ بِأَسْرَعَ مِنْ أَنْ سَمِعَ هَدَّةً مِنَ السَّمَاءِ أَفْظَعَتْهُ، فَقَالَ

---

(١) صحيح لغيره: حديث عمر: لما نزل قوله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤] قال ﷺ «تبا للدنيا تبا للدينار والدرهم» فقلنا: يا رسول الله نهانا الله عن كنز الذهب والفضة، فأي شيء ندخر؟». أخرجه الترمذي وابن ماجه وتقدم في النكاح دون قوله «تبا للدينار والدرهم» والزيادة رواها الطبراني في الأوسط وهو من حديث ثوبان، وإنما قال المصنف إنه حديث عمر لأن عمر هو الذي سأل النبي ﷺ: أي المال يتخذ؟ كما في رواية ابن ماجه، وكما رواه البزار من حديث ابن عباس. [الترمذي: ٣٠٩٤، وابن ماجه: ١٨٥٦، وانظر صحيح الترغيب: ١٤٩٩].

(٢) ضعيف: حديث حذيفة «من آثر الدنيا على الآخرة ابتلاه الله بثلاث». لم أجده من حديث حذيفة، أخرجه الطبراني من حديث ابن مسعود بسند حسن: من أشرق في قلبه حب الدنيا التاط منها بثلاث: شقاء لا ينفذ عناه، وحرص لا يبلغ غناه، وأمل لا يبلغ منتهاه، وفي آخره زيادة. [حديث ابن مسعود انظر ضعيف الترغيب: ١٨٨٢].

(٣) حديث «لا يستكمل عبد الإيمان حتى يكون أن لا يعرف أحب إليه من أن يعرف، وحتى يكون قلته أحب إليه من كثرته». لم أجد له إسنادا، وذكره صاحب الفردوس من رواية علي بن أبي طلحة مرسلا «لا يستكمل عبد الإيمان حتى يكون قلة الشيء أحب إليه من كثرته، وحتى يكون أن يعرف في ذات الله أحب إليه من أن يعرف في غير ذات الله» ولم يخرجه ولده في مسند الفردوس، وعلي بن أبي طلحة: أخرج له مسلم، وروى عن ابن عباس لكن روايته عنه مرسلة، فالحديث إذن معضل.

رسول الله ﷺ: «أَمَرَ اللَّهُ القِيَامَةَ أَنْ تَقُومَ؟ قَالَ: لا وَلَكِنْ هَذَا إسرَافِيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ قَدْ نَزَلَ إِلَيْكَ حِينَ سَمِعَ كَلامَكَ، فَأَتَاهُ إِسْرَافِيلُ فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ سَمِعَ ما ذَكَرْتَ فَبَعَثَنِي بِمَفَاتِيحِ الأَرْضِ وَأَمَرَنِي أَنْ أَعْرِضَ عَلَيْكَ إِنْ أَحْبَبْتَ أَنْ أُسَيِّرَ مَعَكَ جِبَالَ تِهَامَةَ زُمُرُّدًا وَيَاقُوتًا وَذَهَبًا وَفِضَّةً فَعَلْتُ، وَإِنْ شِئْتَ نَبِيًّا مَلِكًا، وَإِنْ شِئْتَ نَبِيًّا عَبْدًا، فَأَوْمَأَ إِلَيْهِ جِبْرِيلُ أَنْ تَوَاضَعْ لِلَّهِ فَقَالَ: «نَبِيًّا عَبْدًا» ثلاثًا [(١)].

وقال ﷺ: «إذا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا زَهَّدَهُ فِي الدُّنْيَا وَرَغَّبَهُ فِي الآخِرَةِ وَبَصَّرَهُ بِعُيُوبِ نَفْسِهِ [(٢)].

وقال ﷺ لرجل: «ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبُّكَ اللَّهُ، وَازْهَدْ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ يُحِبَّكَ النَّاسُ» [(٣)].

وقال صلوات الله عليه: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يُؤْتِيَهِ اللَّهُ عِلْمًا بِغَيْرِ تَعَلُّمٍ وَهُدًى بِغَيْرِ هِدَايَةٍ فَلْيَزْهَدْ فِي الدُّنْيَا» [(٤)]، وقال ﷺ: «مَن اشْتَاقَ إِلَى الجَنَّةِ سَارَعَ إِلَى الخَيْرَاتِ، وَمَنْ خَافَ مِنَ النَّارِ لَهَا عَنِ الشَّهَوَاتِ، وَمَنْ تَرَقَّبَ المَوْتَ تَرَكَ اللَّذَاتِ، وَمَنْ زَهِدَ فِي الدُّنْيَا هَانَتْ عَلَيْهِ المُصِيبَاتُ» [(٥)].

ويروى عن نبينا وعن المسيح عليهما السلام: «أَرْبَعٌ لا يُدْرَكْنَ إِلاَّ بِتَعَب: الصَّمْتُ وَهُوَ أَوَّلُ العِبَادَةِ، وَالتَّوَاضُعُ، وَكَثْرَةُ الذِّكْرِ، وَقِلَّةُ الشَّيْءِ» [(٦)]، وإيراد جميع الأخبار الواردة في مدح بغض الدنيا وذم حبها لا يمكن، فإنّ الأنبياء ما بعثوا إلا لصرف الناس عن الدنيا إلى الآخرة وإليه يرجع أكثر كلامهم مع الخلق، وفيما أوردناه كفاية والله المستعان.

وأما الآثار: فقد جاء في الأثر: لا تزال لا إله إلا الله تدفع عن العباد سخط الله عز وجل ما لم يسألوا ما نقص من دنياهم. وفي لفظ آخر: ما لم يؤثروا صفقة دنياهم على دينهم، فإذا فعلوا ذلك وقالوا: لا إله إلا الله قال الله تعالى: كذبتم، لستم بها صادقين.

وعن بعض الصحابة رضي الله عنهم أنه قال: تابعنا الأعمال كلها فلم نر في أمر

---

(١) منكر: حديث ابن عباس: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم وجبريل معه فصعد على الصفا». تقدم مختصرا. [انظر ضعيف الترغيب: ١٩٠٨].

(٢) ضعيف: حديث «إذا أراد الله بعبد خيرا زهده في الدنيا ورغبه في الآخرة وبصره بعيوب نفسه». رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس دون قوله «ورغبه في الآخرة» وزاد «فقهه في الدين» وإسناده ضعيف. [انظر ضعيف الجامع: ٣٣٥].

(٣) حسن لغيره: حديث «ازهد في الدنيا يحبك الله». تقدم. [ابن ماجه: ٤١٠٢، وانظر صحيح الترغيب: ٣٢١٣].

(٤) حديث «من أراد أن يؤته الله علما بغير تعلم وهدى بغير هداية فليزهد في الدنيا». لم أجد له أصلا.

(٥) ضعيف: حديث «من اشتاق إلى الجنة سارع إلى الخيرات». رواه ابن حبان في الضعفاء من حديث علي بن أبي طالب. [انظر السلسلة الضعيفة: ٤٥٥٠].

(٦) موضوع: حديث «أربع لا يدركن إلا بتعب: الصمت وهو أول العبادة». رواه الطبراني والحاكم من حديث أنس وقد تقدم. [انظر ضعيف الترغيب: ١٧١١].

الآخرة أبلغ من زهد في الدنيا.

وقال بعض الصحابة لصدر من التابعين: أنتم أكثر أعمالًا واجتهادًا من أصحاب رسول الله ﷺ وكانوا خيرًا منكم. قيل: ولم ذلك؟ قال: كانوا أزهد في الدنيا منكم.

وقال عمر رضي الله عنه: الزهادة في الدنيا راحة القلب والجسد.

وقال بلال بن سعد: كفى به ذنبًا أنّ الله تعالى يزهدنا في الدنيا ونحن نرغب فيها.

وقال رجل لسفيان: **أشتهي** أن أرى عالمًا زاهدًا، فقال: **ويحك**: تلك ضالة لا توجد.

وقال وهب بن منبه: إنّ للجنة ثمانية أبواب، فإذا صار أهل الجنة إليها جعل البوّابون يقولون: وعزة ربنا لا يدخلها أحد قبل الزاهدين في الدنيا العاشقين للجنة.

وقال يوسف بن أسباط رحمه الله: إني لأشتهي من الله ثلاث خصال: أن أموت حين أموت وليس في ملكي درهم، ولا يكون عليَّ دين ولا على عظمي لحم فأعطي ذلك كله.

وروي أن بعض الخلفاء أرسل إلى الفقهاء بجوائز فقبلوها، وأرسل إلى الفضيل بعشرة آلاف فلم يقبلها، فقال له بنوه: قد قبل الفقهاء وأنت ترد على حالتك هذه فبكى الفضيل وقال: أتدرون ما مثلي ومثلكم؟ كمثل قوم كانت لهم بقرة يحرثون عليها، فلما هرمت ذبحوها لأجل أن ينتفعوا بجلدها، كذلك أنتم أردتم ذبحي على كبر سني، موتوا يا أهلي جوعًا خير لكم من أن تذبحوها فضيلًا.

وقال عبيد بن عميرة كان المسيح ابن مريم عليه السلام يلبس الشعر ويأكل الشجر، وليس له ولد يموت ولا بيت يخرب ولا يدّخر لغد، أينما أدركه المساء نام.

وقالت امرأة أبي حازم لأبي حازم: هذا الشتاء قد هجم علينا ولا بدّ لنا من الطعام والثياب والحطب فقال لها أبو حازم: من هذا كله بدّ، ولكن لا بدّ لنا من الموت ثم البعث ثم الوقوف بين يدي الله تعالى ثم الجنة أو النار.

وقيل للحسن: لم لا تغسل ثيابك؟ **قال**: الأمر أعجل من ذلك.

وقال إبراهيم بن أدهم: قد حجبت قلوبنا بثلاثة أغطية، فلن يكشف للعبد اليقين حتى ترفع هذه الحجب: الفرح بالموجود، والحزن على المفقود، والسرور بالمدح، فإذا فرحت بالموجود فأنت حريص، وإذا حزنت على المفقود فأنت ساخط والساخط معذب، وإذا سررت بالمدح فأنت معجب والعجب يحبط العمل.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: ركعتين من زاهد قلبه خير له وأحب إلى الله من عبادة المتعبدين المجتهدين إلى آخر الدهر أبدًا سرمدًا.

وقال بعض السلف: نعمة الله علينا فيما صرف عنا أكثر من نعمته فيما صرف إلينا، وكأنه التفت إلى معنى قوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَحْمِي عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ مِنَ الدُّنْيَا وَهُوَ يُحِبُّهُ كَمَا تَحْمُونَ

مَرِيضَكُم الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ تَخَافُونَ عَلَيْهِ»[١] ، فإذا فهم هذا علم أن النعمة في المنع المؤدي إلى الصحة أكبر منها في الإعطاء المؤدي إلى السقم.

وكان الثوري يقول: الدنيا دار التواء لا دار استواء، ودار ترح لا دار فرح، من عرفها لم يفرح برخاء ولم يحزن على شقاء.

وقال سهل: لا يخلص العمل لمتعبد حتى يفرغ من أربعة أشياء: الجوع، والعري، والفقر، والذل.

وقال الحسن البصري: أدركت أقوامًا وصحبت طوائف ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أقبل، ولا يأسفون على شيء منها أدبر، ولهي كانت في أعينهم أهون من التراب، كان أحدهم يعيش خمسين سنة أو ستين سنة لم يطو له ثوب ولم ينصب له قدر، ولم يجعل بينه وبين الأرض شيئًا، ولا أمر من في بيته بصنعة طعام قط، فإذا كان الليل فقيام على أقدامهم، يفترشون وجوههم، تجري دموعهم على خدودهم، يناجون ربهم في فكاك رقابهم. كانوا إذا عملوا الحسنة دأبوا في شكرها وسألوا الله أن يقبلها، وإذا عملوا السيئة أحزنتهم وسألوا الله أن يغفرها لهم فلم يزالوا على ذلك، والله ما سلموا من الذنوب ولا نجوا إلا بالمغفرة رحمة الله عليهم ورضوانه.

بيان درجات الزهد وأقسامه الإضافة الى نفسه؛ والى المرغوب عنه، والى المرغوب فيه:

اعلم أنّ الزهد في نفسه يتفاوت بحسب تفاوت قوّته على درجات ثلاث:

الدرجة الأولى: وهي السفلى منها: أن يزهد في الدنيا وهو لها مشتهٍ وقلبه إليها مائل ونفسه إليها ملتفتة، ولكنه يجاهدها ويكفها، وهذا يسمى المتزهد، وهو مبدأ الزهد في حق من يصل إلى درجة الزهد بالكسب والاجتهاد، والمتزهد يذيب أوّلًا نفسه ثم كيسه والزاهد أولًا يذيب كيسه ثم يذيب نفسه في الطاعات لا في الصبر على ما فارقه، والمتزهد على خطر، فإنه ربما تغلبه نفسه وتجذبه شهوته فيعود إلى الدنيا وإلى الاستراحة بها في قليل أو كثير.

الدرجة الثانية: الذي يترك الدنيا طوعًا لاستحقاره إياها بالإضافة إلى ما طمع فيه، كالذي يترك درهمًا لأجل درهمين، فإنه لا يشق عليه ذلك وإن كان يحتاج إلى انتظار قليل، ولكن هذا الزاهد يرى لا محالة زهده ويلتفت إليه، كما يرى البائع المبيع ويلتفت إليه فيكاد يكون معجبًا بنفسه وبزهده، ويظن في نفسه أنه ترك شيئًا له قدر لما هو أعظم قدرًا منه، وهذا أيضًا نقصان.

الدرجة الثالثة: وهي العليا: أن يزهد طوعًا ويزهد في زهده فلا يرى زهده، إذ لا يرى أنه ترك شيئًا. إذ عرف أنّ الدنيا لا شيء فيكون كمن ترك خزفه وأخذ جوهره، فلا يرى ذلك

(١) صحيح: حديث «إن الله يحمي عبده المؤمن من الدنيا». تقدم. [انظر صحيح الترغيب: ٣١٧٩].

معاوضة، ولا يرى نفسه تاركًا شيئًا، والدنيا بالإضافة إلى الله تعالى، ونعيم الآخرة أخس من خزفة بالإضافة إلى جوهرة، فهذا هو الكمال في الزهد. وسببه كمال المعرفة، ومثل هذا الزاهد آمن من خطر الالتفات إلى الدنيا، كما أنّ تارك الخزفة بالجوهرة آمن من طلب الإقالة في البيع.

قال أبو يزيد رحمه الله تعالى لأبي موسى عبد الرحيم: في أي شيء تتكلم؟ قال: في الزهد، قال: في أي شيء؟ قال في الدنيا: فنفض يده وقال: ظننت أنه يتكلم في شيء، والدنيا لا شيء، إيش يزهد فيها.

ومثل من ترك الدنيا للآخرة عند أهل المعرفة وأرباب القلوب المعمورة بالمشاهدات والمكاشفات مثل من منعه من باب الملك كلب على بابه فألقى إليه لقمة من خبز فشغله بنفسه ودخل الباب ونال القرب عند الملك حتى نفذ أمره في جميع مملكته، أفترى أنه يرى لنفسه يدًا عند الملك بلقمة خبز ألقاها إلى كلبه في مقابلة ما قد ناله؟ فالشيطان كلب على باب الله تعالى يمنع الناس من الدخول مع أن الباب مفتوح والحجاب مرفوع، والدنيا كلقمة خبز إن أكلت فلذتها في حال المضغ وتنقضي على القرب بالابتلاع، ثم يبقى ثفلها في المعدة، ثم تنتهي إلى النتن والقذر، ثم يحتاج بعد ذلك إلى إخراج ذلك الثفل فمن تركها لينال عز الملك كيف يلتفت إليها ونسبة الدنيا كلها أعني ما يسلم لكل شخص منها وإن عمّر مائة سنة بالإضافة إلى نعيم الآخرة أقل من لقمة بالإضافة إلى ملك الدنيا، إذ لا نسبة للمتناهي إلى ما لا نهاية له، والدنيا متناهية على القرب، ولو كانت تتمادى ألف ألف سنة صافية عن كل كدر لكان لا نسبة لها إلى نعيم الأبد، فكيف ومدة العمر قصيرة ولذات الدنيا مكدّرة غير صافية، فأي نسبة لها إلى نعيم الأبد، فإذن لا يلتفت الزاهد إلى زهده إلا إذا التفت إلى ما زهد فيه، ولا يلتفت إلى ما زهد فيه إلا لأنه يراه شيئًا معتدًّا به، ولا يراه شيئًا معتدًّا به إلا لقصور معرفته، فسبب نقصان الزهد نقصان المعرفة، فهذا تفاوت درجات الزهد، وكل درجة من هذه أيضًا لها درجات، إذ تصبر المتزهد يختلف ويتفاوت أيضًا باختلاف قدر المشقة في الصبر، وكذلك درجة المعجب بزهده بقدر التفاته إلى زهده.

وأما انقسام الزهد بالإضافة إلى المرغوب فيه فهو أيضًا على ثلاث درجات:

الدرجة السفلى: أن يكون المرغوب فيه النجاة من النار ومن سائر الآلام كعذاب القبر، ومناقشة الحساب وخطر الصراط وسائر ما بين يدي العبد من الأهوال كما وردت به الأخبار، إذ فيها: «إن الرجل ليوقف في الحساب حتى لو وردت مائة بعير عطاشًا على عرقه لصدرت رواء»[1]، فهذا هو زهد الخائفين وكأنهم رضوا بالعدم لو أعدموا، فإنّ الخلاص من الألم

(١) ضعيف: حديث «إن الرجل ليوقف في الحساب حتى لو وردت مائة بغير عطاشا على عرقه لصدرت رواء».

يحصل بمجرّد العدم.

الدرجة الثانية: أن يزهد رغبة في ثواب الله ونعيمه واللذات الموعودة في جنته من الحور والقصور وغيرها، وهذا زهد الراجين؛ فإنّ هؤلاء ما تركوا الدنيا قناعة بالعدم والخلاص من الألم بل طمعوا في وجود دائم ونعيم سرمد لا آخر له.

الدرجة الثالثة: وهي العليا. أن لا يكون له رغبة إلا في الله وفي لقائه، فلا يلتفت قلبه إلى الآلام ليقصد الخلاص منها ولا إلى اللذات ليقصد نيلها والظفر بها، بل هو مستغرق الهم بالله تعالى؛ وهو الذي أصبح وهمومه هم واحد؛ وهو الموحد الحقيقي الذي لا يطلب غير الله تعالى؛ لأن من طلب غير الله فقد عبده، وكل مطلوب معبود؛ وكل طالب عبد بالإضافة إلى مطلبه، وطلب غير الله من الشرك الخفي، وهذا زهد المحبين وهم العارفون لأنه لا يحب الله تعالى خاصة إلا من عرفه، وكما أنّ من عرف الدينار والدرهم وعلم أنه لا يقدر على الجمع بينهما لم يحب إلا الدينار، فكذلك من عرف الله وعرف لذة النظر إلى وجهه الكريم وعرف أنّ الجمع بين تلك اللذة وبين لذة التنعم بالحور العين والنظر إلى نقش القصور وخضرة الأشجار غير ممكن، فلا يحب إلا لذة النظر ولا يؤثر غيره، ولا تظنن أنّ أهل الجنة عند النظر إلى وجه الله تعالى يبقى للذة الحور والقصور متسع في قلوبهم، بل تلك اللذة بالإضافة إلى لذة نعيم أهل الجنة كلذة ملك الدنيا والاستيلاء على أطراف الأرض ورقاب الخلق بالإضافة إلى لذة الاستيلاء على عصفور واللعب به، والطالبون لنعيم الجنة عند أهل المعرفة وأرباب القلوب كالصبي الطالب للعب بالعصفور التارك للذة الملك، وذلك لقصوره، عن إدراك لذة الملك لا لأنّ اللعب بالعصفور في نفسه أعلى وألذ من الاستيلاء بطريق الملك على كافة الخلق.

وأما انقسامه بالإضافة إلى المرغوب عنه فقد كثرت فيه الأقاويل، ولعل المذكور فيه يزيد على مائة قول فلا نشتغل بنقل الأقاويل، ولكن نشير إلى كلام محيط بالتفاصيل حتى يتضح أنّ أكثر ما ذكر فيه قاصر عن الإحاطة بالكل. فنقول: المرغوب عنه بالزهد له إجمال وتفصيل، ولتفصيله مراتب بعضها أشرح لآحاد الأقسام وبعضها أجمل للجمل. أما الإجمال في الدرجة الأولى: فهو كل ما سوى الله، فينبغي أن يزهد فيه حتى يزهد في نفسه أيضًا، والإجمال في الدرجة الثانية: أن يزهد في كل صفة للنفس فيها متعة، وهذا يتناول جميع مقتضيات الطبع من الشهوة والغضب والكبر والرياسة والمال والجاه وغيرها. وفي الدرجة الثالثة: أن يزهد في المال والجاه وأسبابهما إذ إليهما ترجع جميع حظوظ النفس. وفي الدرجة الرابعة: أن يزهد في

أخرجه أحمد من حديث ابن عباس «التقى مؤمنان على باب الجنة: مؤمن غني، ومؤمن فقير... الحديث، وفيه: «إني حبست بعدك محبسا فظيعا كربها ما وصلت إليك حتى سال مني العرق ما لو ورده ألف بعير أكلة حمض لصدرت عنه رواء» وفيه دريد غير منسوب يحتاج إلى معرفته قال أحمد: حديثه مثله. [أحمد: ٢٧٦٦، وانظر ضعيف الترغيب: ١٨٥٢].

العلم والقدرة والدينار والدرهم والجاه إذ الأموال وإن كثرت أصنافها فيجمعها الدينار والدرهم والجاه وإن كثرت أسبابه فيرجع إلى العلم والقدرة وأعني به كل علم وقدرة مقصودها ملك القلوب، إذ معنى الجاه هو ملك القلوب والقدرة عليها، كما أنّ معنى المال ملك الأعيان والقدرة عليها فإن جاوزت هذا التفصيل إلى شرح وتفصيل أبلغ من هذا فيكاد يخرج ما فيه الزهد عن الحصر. وقد ذكر الله تعالى في آية واحدة سبعة منها فقال: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [آل عمران: ١٤] ثم رده في آية أخرى إلى خمسة فقال عز وجل: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ [الحديد: ٢٠] ثم رده تعالى في موضع آخر إلى اثنين فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [محمد: ٣٦] ثم رد الكل إلى واحد في موضع آخر فقال: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ۝﴾ [النازعات: ٤٠-٤١] فالهوى لفظ يجمع جميع حظوظ النفس في الدنيا، فينبغي أن يكون الزهد فيه. وإذا فهمت طريق الإجمال والتفصيل عرفت أنّ البعض من هذه لا يخالف البعض وإنما يفارقه في الشرح مرة والإجمال أخرى.

فالحاصل أنّ الزهد عبارة عن الرغبة عن حظوظ النفس كلها، ومهما رغب عن حظوظ النفس رغب عن البقاء في الدنيا فقصر أمله لا محالة، لأنه إنما يريد البقاء ليتمتع ويريد التمتع الدائم بإرادة البقاء؛ فإنّ من أراد شيئًا أراد دوامه، ولا معنى لحب الحياة إلا حب دوام ما هو موجود أو ممكن في هذه الحياة، فإذا رغب عنها لم يردها، ولذلك لما كتب عليهم القتال: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [النساء: ٧٧] فقال تعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: ٧٧] أي لستم تريدون البقاء إلا لمتاع الدنيا، فظهر عند ذلك الزاهدون وانكشف حال المنافقين. أما الزاهدون المحبون لله تعالى فقاتلوا في سبيل الله كأنهم بنيان مرصوص وانتظروا إحدى الحسنيين، وكانوا إذا دعوا إلى القتال يستنشقون رائحة الجنة ويبادرون إليه مبادرة الظمآن إلى الماء البارد حرصًا على نصرة دين الله أو نيل رتبة الشهادة، وكان من مات منهم على فراشه يتحسر على فوت الشهادة، حتى أنّ خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه لما احتضر للموت على فراشه كان يقول: كم غررت بروحي وهجمت على الصفوف طمعًا في الشهادة وأنا الآن أموت موت العجائز، فلما مات عدّ على جسده ثمانمائة ثقب من آثار الجراحات، هكذا كان حال الصادقين في الإيمان رضي الله تعالى عنهم أجمعين. وأما المنافقون، ففرّوا من الزحف خوفًا من الموت فقيل لهم: ﴿إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾ [الجمعة: ٨] فإيثارهم البقاء على الشهادة استبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير، ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦]

وأما المخلصون، فإنّ الله تعالى اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنة، فلما رأوا أنهم تركوا تمتع عشرين سنة مثلًا أو ثلاثين سنة بتمتع الأبد استبشروا ببيعهم الذي بايعوا به، فهذا بيان المزهود فيه.

وإذا فهمت هذا علمت أنّ ما ذكره المتكلمون في حدّ الزهد لم يشيروا به إلا إلى بعض أقسامه فذكر كل واحد منهم ما رآه غالبًا على نفسه أو على من كان يخاطبه، فقال بشر رحمه الله تعالى: الزهد في الدنيا هو الزهد في الناس، وهذا إشارة إلى الزهد في الجاه خاصة. وقال قاسم الجوعي: الزهد في الدنيا هو الزهد في الجوف؛ فبقدر ما تملك من بطنك كذلك تملك من الزهد، وهذا إشارة إلى الزهد في شهوة واحدة، ولعمري هي أغلب الشهوات على الأكثر وهي المهيجة لأكثر الشهوات. وقال الفضيل: الزهد في الدنيا هو القناعة، وهذا إشارة إلى المال خاصة. وقال الثوري: الزهد هو قصر الأمل، وهو جامع لجميع الشهوات، فإنّ من يميل إلى الشهوات يحدّث نفسه بالبقاء فيطول أمله، ومن قصر أمله فكأنه رغب عن الشهوات كلها. وقال أويس: إذا خرج الزاهد يطلب ذهب الزهد عنه، وما قصد بهذا حدّ الزهد ولكن جعل التوكل شرطًا في الزهد. وقال أويس أيضًا: الزهد هو ترك الطلب للمضمون، وهو إشارة إلى الرزق، وقال أهل الحديث: حب الدنيا هو العمل بالرأي والمعقول، والزهد إنما هو اتباع العلم ولزوم السنة، وهذا إن أريد به الرأي الفاسد والمعقول الذي يطلب به الجاه في الدنيا فهو صحيح، ولكنه إشارة إلى بعض أسباب الجاه خاصة أو إلى بعض ما هو من فضول الشهوات، فإنّ من العلوم ما لا فائدة فيه في الآخرة، وقد طوّلوها حتى ينقضي عمر الإنسان في الاشتغال بواحد منها، فشرط الزاهد أن يكون الفضول أوّل مرغوب عنه عنده، وقال الحسن: الزاهد الذي إذا رأى أحدًا قال: هذا أفضل مني، فذهب إلى أنّ الزهد هو التواضع، وهذا إشارة إلى نفي الجاه والعجب وهو بعض أقسام الزهد، وقال بعضهم: الزهد هو طلب الحلال، وأين هذا ممن يقول: الزهد هو ترك الطلب كما قال أويس، ولا شك في أنه أراد به ترك طلب الحلال، وقد كان يوسف بن أسباط يقول: من صبر على الأذى وترك الشهوات وأكل الخبز من الحلال فقد أخذ بأصل الزهد.

وفي الزهد أقاويل وراء ما نقلناه فلم نر في نقلها فائدة، فإن من طلب كشف حقائق الأمور من أقاويل الناس رآها مختلفة فلا يستفيد إلا الحيرة، وأما من انكشف له الحق في نفسه وأدركه بمشاهدة من قلبه لا بتلقف من سمعه، فقد وثق بالحق واطلع على قصور من قصر لقصور بصيرته، وعلى اقتصار من اقتصر مع كمال المعرفة لاقتصار حاجته، وهؤلاء كلهم اقتصروا لا لقصور في البصيرة لكنهم ذكروا ما ذكروه عند الحاجة، فلا جرم ذكروه بقدر الحاجة، والحاجات تختلف فلا جرم الكلمات تختلف، وقد يكون سبب الاقتصار الإخبار عن الحالة الراهنة التي هي مقام العبد في نفسه والأحوال تختلف، فلا جرم الأقوال المخبرة عنها

تختلف، وأما الحق في نفسه فلا يكون إلا واحدًا ولا يتصوّر أن يختلف، وإنما الجامع من هذه الأقاويل الكامل في نفسه وإن لم يكن فيه تفصيل: ما قاله أبو سليمان الداراني إذ قال: سمعنا في الزهد كلامًا كثيرًا، والزهد عندنا ترك كل شيء يشغلك عن الله عز وجل وقد فصل مرة وقال: من تزوج أو سافر في طلب المعيشة أو كتب الحديث فقد ركن إلى الدنيا فجعل جميع ذلك ضدًّا للزهد، وقد قرأ أبو سليمان قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٩] فقال: هو القلب الذي ليس فيه غير الله تعالى وقال: إنما زهدوا في الدنيا لتفرغ قلوبهم من همومها للآخرة، فهذا بيان انقسام الزهد بالإضافة إلى أصناف المزهود فيه؛ فأما بالإضافة إلى أحكامه فينقسم إلى فرض ونفل وسلامة، كما قاله إبراهيم بن أدهم، فالفرض: هو الزهد في الحرام. والنفل: هو الزهد في الحلال.

والسلامة: هو الزهد في الشبهات.

وقد ذكرنا تفاصيل درجات الورع في كتاب الحلال والحرام وذلك من الزهد، إذ قيل لمالك بن أنس: ما الزهد؟ قال: التقوى، وأما بالإضافة إلى خفايا ما يتركه فلا نهاية للزهد فيه، إذ لا نهاية لما تتمتع به النفس في الخطرات واللحظات وسائر الحالات، لا سيما خفايا الرياء فإنّ ذلك لا يطلع عليه إلا سماسرة العلماء، بل الأموال الظاهرة أيضًا درجات الزهد فيها لا تتناهى، فمن أقصى درجاته زهد عيسى عليه السلام إذ توسد حجرًا في نومه فقال له الشيطان: أما كنت تركت الدنيا فما الذي بدا لك؟ قال: وما الذي تجد؟ قال: توسدك الحجر: أي تنعمت برفع رأسك عن الأرض في النوم، فرمى الحجر وقال: خذه مع ما تركته لك.

وروي عن يحيى بن زكريا عليهما السلام أنه لبس المسوح حتى ثقب جلده تركًا للتنعم بلين اللباس واستراحة حس اللمس، فسألته أمه أن يلبس مكان المسح جبة من صوف ففعل، فأوحى الله تعالى إليه: يا يحيى، آثرت علي الدنيا، فبكى ونزع الصوف وعاد إلى ما كان عليه.

وقال أحمد رحمه الله تعالى: الزهد زهد أويس، بلغ من العري أن جلس في قوصرة. وجلس عيسى عليه السلام في ظل حائط إنسان فأقامه صاحب الحائط، فقال: ما أقمتني أنت إنما أقامني الذي لم يرض لي أن أتنعم بظل الحائط، فإذن درجات الزهد ظاهرًا وباطنًا لا حصر لها، وأقل درجاته: الزهد في كل شبهة ومحظور. وقال قوم: الزهد هو الزهد في الحلال لا في الشبهة والمحظور، فليس ذلك من درجاته في شيء، ثم رأوا أنه لم يبق حلال في أموال الدنيا فلا يتصوّر الزهد الآن.

فإن قلت: مهما كان الصحيح هو أنّ الزهد ترك ما سوى الله فكيف يتصوّر ذلك مع الأكل والشرب واللبس ومخالطة الناس ومكالمتهم وكل ذلك اشتغال بما سوى الله تعالى؟

فاعلم أنّ معنى الانصراف عن الدنيا إلى الله تعالى هو الإقبال بكل القلب عليه ذكرًا وفكرًا، ولا يتصوّر ذلك إلا مع البقاء، ولا بقاء إلا بضروريات النفس؛ فمهما اقتصرت من الدنيا على

دفع المهلكات عن البدن وكان غرضك الاستعانة بالبدن على العبادة لم تكن مشتغلًا بغير الله؛ فإنّ ما لا يتوصل إلى الشيء إلا به فهو منه؛ فالمشتغل بعلف الناقة وبسقيها في طريق الحج ليس معرضًا عن الحج، ولكن ينبغي أن يكون بدنك في طريق الله مثل ناقتك في طريق الحج، ولا غرض لك في تنعم ناقتك باللذات، بل غرضك مقصور على دفع المهلكات عنها حتى تسير بك إلى مقصدك، فكذلك ينبغي أن تكون في صيانة بدنك عن الجوع والعطش المهلك بالأكل والشرب، وعن الحرّ والبرد المهلك باللباس والمسكن، فتقتصر على قدر الضرورة ولا تقصد التلذذ بل التقوى على طاعة الله تعالى، فذلك لا يناقض الزهد، بل هو شرط الزهد، وإن قلت: فلا بدّ وأن أتلذذ بالأكل عند الجوع؛ فاعلم أن ذلك لا يضرك إذا لم يكن قصدك التلذذ، فإنّ شارب الماء البارد قد يستلذ الشرب ويرجع حاصله إلى زوال ألم العطش، ومن يقضي حاجته قد يستريح بذلك ولكن لا يكون ذلك مقصودًا عنده ومطلوبًا بالقصد، فلا يكون القلب منصرفًا إليه؛ فالإنسان قد يستريح في قيام الليل بتنسم الأسحار وصوت الأطيار، ولكن إذا لم يقصد طلب موضع لهذه الاستراحة فما يصيبه من ذلك بغير قصد لا يضره، ولقد كان في الخائفين من طلب موضعًا لا يصيبه فيه نسيم الأسحار خيفة من الاستراحة به وأنس القلب معه، فيكون فيه أنس بالدنيا ونقصان في الأنس بالله بقدر وقوع الأنس بغير الله، ولذلك كان داود الطائي له جب مكشوف فيه ماؤه فكان لا يرفعه من الشمس، ويشرب الماء الحارّ ويقول: من وجد لذة الماء البارد شق عليه مفارقة الدنيا، فهذه مخاوف المحتاطين والحزم في جميع ذلك الاحتياط، فإنه وإن كان شاقًّا فمدّته قريبة والاحتماء مدّة يسيرة للتنعم على التأبيد، لا يثقل على أهل المعرفة القاهرين لأنفسهم بسياسة الشرع المعتصمين بعروة اليقين في معرفة المضادة التي بين الدنيا والدين، رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

بيان تفصيل الزهد فيما هو من ضروريات الحياة:

اعلم أن ما الناس منهمكون فيه ينقسم إلى فضول وإلى مهم؛ فالفضول كالخيل المسوّمة مثلًا، إذ غالب الناس إنما يقتنيها للترفه بركوبها وهو قادر على المشي والمهم كالأكل والشرب، ولسنا نقدر على تفصيل أصناف الفضول فإن ذلك لا ينحصر، وإنما ينحصر المهم الضروري، والمهم أيضًا يتطرّق إليه فضول في مقداره وجنسه وأوقاته، فلا بدّ من بيان وجه الزهد فيه، والمهمات ستة أمور: المطعم، والملبس، والمسكن، وأثاثه، والمنكح، والمال. والجاه يطلب لأغراض. وهذه الستة من جملتها، وقد ذكرنا معنى الجاه وسبب حب الخلق له وكيفية الاحتراز منه في كتاب الرياء من ربع المهلكات، ونحن الآن نقتصر على بيان هذه المهمات الستة.

الأول المطعم: ولا بدّ للإنسان من قوت حلال يقيم صلبه ولكن له طول وعرض، فلا بد من قبض طوله وعرضه حتى يتم به الزهد؛ فأما طوله فبالإضافة إلى جملة العمر، فإن من يملك

طعام يومه فلا يقنع به، وأما عرضه ففي مقدار الطعام وجنسه ووقت تناوله؛ أما طوله فلا يقصر إلا بقصر الأمل، وأقل درجات الزهد فيه الاقتصار على قدر دفع الجوع عند شدّة الجوع وخوف المرض، ومن هذا حاله فإذا استقل بما تناوله لم يدّخر من غذائه لعشائه، وهذه هي الدرجة العليا.

الدرجة الثانية: أن يدّخر لشهر أو أربعين يومًا.

الدرجة الثالثة: أن يدّخر لسنة فقط، وهذه رتبة ضعفاء الزهاد، ومن ادخر لأكثر من ذلك فتسميته زاهدًا محال؛ لأن من أمل بقاء أكثر من سنة فهو طويل الأمل جدًّا فلا يتم منه الزهد إلا إذا لم يكن له كسب ولم يرض لنفسه الأخذ من أيدي الناس، كداود الطائي فإنه ورث عشرين دينارًا فأمسكها وأنفقها في عشرين سنة؛ فهذا لا يضاد أصل الزهد إلا عند من جعل التوكل شرط الزهد، وأما عرضه فبالإضافة إلى المقدار، وأقل درجاته في اليوم والليلة نصف رطل، وأوسطه رطل، وأعلاه مدّ واحد: وهو ما قدره الله تعالى في إطعام المسكين في الكفارة، وما وراء ذلك فهو من اتساع البطن والاشتغال به، ومن لم يقدر على الاقتصار على مد لم يكن له من الزهد في البطن نصيب، وأما بالإضافة إلى الجنس فأقله كل ما يقوت، ولو الخبز من النخالة، وأوسطه خبز الشعير والذرة، وأعلاه خبز البر غير منخول، فإذا ميز من النخالة وصار حواري فقد دخل في التنعم وخرج عن آخر أبواب الزهد فضلًا عن أوائله.

وأما الأدم: فأقله الملح أو البقل والخل، وأوسطه الزيت أو يسير من الأدهان أي دهن كان، وأعلاه اللحم أي لحم كان، وذلك في الأسبوع مرة أو مرتين، فإن صار دائمًا أو أكثر من مرتين في الأسبوع خرج عن آخر أبواب الزهد فلم يكن صاحبه زاهدًا في البطن أصلًا، وأما بالإضافة إلى الوقت فأقله في اليوم والليلة مرة وهو أن يكون صائمًا، وأوسطه أن يصوم ويشرب ليلة ولا يأكل، ويأكل ليلة ولا يشرب، وأعلاه أن ينتهي إلى أن يطوي ثلاثة أيام أو أسبوعًا وما زاد عليه، وقد ذكرنا طريق تقليل الطعام وكسر شرهه في ربع المهلكات، ولينظر إلى أحوال رسول الله ﷺ والصحابة رضوان الله عليهم في كيفية زهدهم في المطاعم وتركهم الأدم.

قالت عائشة رضي الله تعالى عنها: كانت تأتي علينا أربعون ليلة وما يوقد في بيت رسول الله ﷺ مصباح ولا نار.

قيل لها: فبم كنتم تعيشون؟ قالت: بالأسودين التمر والماء[1].

وهذا ترك اللحم والمرقة والأدم.

---

(١) حديث عائشة: كان تأتي أربعون ليلة وما يوقد في بيت رسول الله ﷺ مصباح ولا نار. أخرجه ابن ماجه من حديث عائشة: «كان يأتي على آل محمد الشهر ما يرى في بيت من بيوته دخان... الحديث» [ابن ماجه: ٤١٤٥، وانظر صحيح ابن ماجه، وقال الألباني: حسن صحيح]. وفي رواية له: ما يوقد فيه بنار. ولأحمد: «كان يمر بنا هلال وهلال ما يوقد في بيت من بيوته نار» [مسلم: ٢٩٧٢، وأحمد: ٢٤٠٤٠]. وفي رواية له: ثلاثة أهلة.

وقال الحسن: كان رسول الله ﷺ يركب الحمار ويلبس الصوف وينتعل المخصوف ويلعق أصابعه ويأكل على الأرض. ويقول: «إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ آكُلُ كَمَا تَأْكُلُ العَبِيدُ، وَأَجْلِسُ كَمَا تَجْلِسُ العَبِيدُ» (١).

وقال المسيح عليه السلام: بحق أقول لكم، إنه من طلب الفردوس فخبز الشعير له، والنوم على المزابل مع الكلاب كثير.

وقال الفضيل: ما شبع رسول الله ﷺ منذ قدم المدينة ثلاثة أيام من خبز البر (٢).

وكان المسيح يقول: يا بني إسرائيل، عليكم بالماء القراح والبقل البري وخبز الشعير، وإياكم وخبز البر، فإنكم لن تقوموا بشكره. وقد ذكرنا سيرة الأنبياء والسلف في المطعم والمشرب في ربع المهلكات فلا نعيده.

ولما أتى النبي ﷺ أهل قباء أتوه بشربة من لبن مشوبة بعسل، فوضع القدح من يده وقال: «أَمَا إِنِّي لَسْتُ أُحَرِّمُهُ وَلَكِنْ أَتْرُكُهُ تَوَاضُعًا لِلَّهِ تَعَالَى» (٣).

وأتي عمر رضي الله عنه بشربة من ماء بارد وعسل في يوم صائف فقال: اعزلوا عني حسابها. وقد قال يحيى بن معاذ الرازي: الزاهد الصادق قوته ما وجد، ولباسه ما ستر، ومسكنه حيث أدرك، الدنيا سجنه، والقبر مضجعه، والخلوة مجلسه، والاعتبار فكرته، والقرآن حديثه، والرب أنيسه، والذكر رفيقه، والزهد قرينه، والحزن شأنه، والحياء شعاره، والجوع إدامه، والحكمة كلامه، والتراب فراشه، والتقوى زاده، والصمت غنيمته، والصبر معتمده، والتوكل حسبه، والعقل دليله؛ والعبادة حرفته، والجنة مبلغه إن شاء الله تعالى.

المهم الثاني: الملبس. وأقل درجته. ما يدفع الحر والبرد ويستر العورة. وهو كساء يتغطى به. وأوسطه: قميص وقلنسوة ونعلان وأعلاه. أن يكون معه منديل وسراويل. وما جاوز هذا من حيث المقدار فهو مجاوز حد الزهد. وشرط الزاهد: أن لا يكون له ثوب يلبسه إذا غسل ثوبه. بل يلزمه القعود في البيت. فإذا صار صاحب قميصين وسراويلين ومنديلين فقد خرج من جميع أبواب الزهد من حيث المقدار. أما الجنس فأقله المسوح الخشنة وأوسطه الصوف الخشن وأعلاه القطن الغليظ. وأما من حيث الوقت، فأقصاه ما يستر سنة، وأقله ما يبقى يومًا،

---

(١) حديث الحسن: «كان رسول الله ﷺ يركب الحمار ويلبس الصوف وينتعل المخصوف ويلعق أصابعه [مسلم: ٢٠٣٢] ويأكل على الأرض [البخاري: ٥٤١٥]». ويقول «إنما أنا عبد آكل كما تأكل العبيد، واجلس كما تجلس العبيد» [انظر ضعيف الجامع: ٢٠٥٣]. تقدم دون قوله «إنما أنا عبد» فإنه ليس من حديث الحسن، إنما هو من حديث عائشة وقد تقدم. [الحديث دون «ويلعق أصابعه. . . . » انظر السلسلة الصحيحة: ٢١٣٠].

(٢) صحيح: حديث: ما شبع رسول الله ﷺ منذ قدم المدينة ثلاثة أيام من خبز البر. تقدم [البخاري: ٦٦٨٧، ومسلم: ٢٩٧٠].

(٣) ضعيف جدًا: حديث: لما أتى أهل قباء أتوه بشربة من لبن بعسل، فوضع القدح من يده. تقدم. [انظر ضعيف الترغيب: ١٩١٠].

حتى رقع بعضهم ثوبه بورق الشجر وإن كان يتسارع الجفاف إليه، وأوسطه ما يتماسك عليه شهرًا وما يقاربه فطلب ما يبقى أكثر من سنة خروج إلى طول الأمل وهو مضاد للزهد، إلا إذا كان المطلوب خشونته، ثم قد يتبع ذلك قوّته ودوامه؛ فمن وجد زيادة من ذلك فينبغي أن يتصدّق به، فإن أمسكه لم يكن زاهدًا بل كان محبًّا للدنيا، ولينظر فيه إلى أحوال الأنبياء والصحابة كيف تركوا الملابس: قال أبو بردة: أخرجت لنا عائشة رضي الله تعالى عنها كساء ملبدًا وإزارًا غليظًا فقالت: قبض رسول الله ﷺ في هذين (١).

وقال ﷺ: «إنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحِبُّ المُتَبَذِّلَ الَّذِي لا يُبَالِي مَا لَبِسَ» (٢). وقال عمرو بن الأسود العنسي: لا ألبس مشهورًا أبدًا، ولا أنام بليل أبدًا على دثار أبدًا، ولا أركب على مأثور أبدًا، ولا أملأ جوفي من طعام أبدًا فقال عمر: من سره أن ينظر إلى هدى رسول الله ﷺ فلينظر إلى عمرو بن الأسود (٣). وفي الخبر: «ما من عبد لبس ثوب شهرة إلا أعرض الله عنه حتى ينزعه وإن كان عنده حبيبًا» (٤)، واشترى رسول الله ﷺ ثوبًا بأربعة دراهم (٥).

وكانت قيمة ثوبيه عشرة (٦)، وكان إزاره أربعة أذرع ونصفًا (٧) واشترى سراويل بثلاثة دراهم (٨). وكان يلبس شملتين بيضاوين من صوف (٩)، وكانت تسمى حلة لأنها ثوبان

---

(١) صحيح: حديث أخرجت عائشة كساء ملبدا وإزارا غليظا فقالت. قبض رسول الله ﷺ في هذين. رواه الشيخان وقد تقدم في آداب المعيشة. [البخاري: ٣١٠٨، ومسلم: ٢٠٨٠].

(٢) ضعيف: حديث «إن الله يحب المتبذل لا يبالي ما لبس». لم أجد له أصلا. [انظر ضعيف الترغيب: ١٢٦١ عن أبي هريرة].

(٣) حديث عمر «من سره أن ينظر إلى هدى رسول الله ﷺ فلينظر إلى هدى عمرو بن الأسود». رواه أحمد بإسناد جيد. [أحمد: ١١٦].

(٤) ضعيف: حديث «ما من عبد لبس ثوب شهرة». رواه ابن ماجه من حديث أبي ذر بإسناد جيد دون قوله «وإن كان عنده حبيبا». [ابن ماجه: ٣٦٠٨، وانظر السلسلة الضعيفة: ٤٦٥٠].

(٥) ضعيف: حديث: اشترى رسول الله ﷺ ثوبا بأربعة دراهم. أخرجه أبو يعلى من حديث أبي هريرة، قال دخلت يوما السوق مع رسول الله ﷺ فجلس إلى البزازين فاشترى سراويل بأربعة دراهم... الحديث، وإسناده ضعيف. [النسائي: ٤٩٤٢، وانظر ضعيف النسائي، وفيه «أن النبي ﷺ قطع في قيمة خمسة دراهم»].

(٦) حديث: كان قيمة ثوبيه عشرة دراهم. لم أجده.

(٧) حديث: كان إزاره أربعة أذرع ونصفا. أخرجه أبو الشيخ في كتاب أخلاق رسول الله ﷺ من رواية عروة بن الزبير مرسلا: كان رداء رسول الله ﷺ أربعة أذرع، وعرضه ذراعان ونصف... الحديث وفيه ابن لهيعة. وفي طبقات ابن سعد من حديث أبي هريرة: كان له إزار من نسج عمان طوله أربعة أذرع وشبر في ذراعين وشبر، وفيه محمد بن عمر الواقدي.

(٨) حديث: اشترى سراويل بثلاثة دراهم، المعروف أنه اشتراه بأربعة دراهم. تقدم عند أبي يعلى، وشراؤه السراويل عند أصحاب السنن من حديث سويد بن قيس إلا أنه لم يذكر فيه مقدار ثمنه، قال الترمذي: حسن صحيح. [حديث سويد عند أبي داود: ٣٣٣٦، والترمذي: ١٣٠٥، والنسائي: ٤٥٩٢، وابن ماجه: ٢٢٢٠، وانظر صحيح أبي داود].

(٩) حديث: كان يلبس شملتين بيضاوين من صوف وكانت تسمى حلة لأنها ثوبان من جنس واحد، وربما كان يلبس بردين يمانيين أو سحوليين من هذه الغلاظ، تقدم في آداب وأخلاق النبوة لبسه للشملة والبرد والحبرة. أما

من جنس واحد، وربما كان يلبس بردين يمانيين أو سحوليين من هذه الغلاظ. وفي الخبر: كان قميص رسول الله ﷺ كأنه قميص زيات [١] . ولبس رسول الله ﷺ يومًا واحدًا ثوبًا سيراء من سندس قيمته مائتا درهم [٢] فكان أصحابه يلمسونه ويقولون يا رسول الله: أنزل عليك هذا من الجنة تعجبًا، وكان قد أهداه إليه المقوقس ملك الإسكندرية، فأراد أن يكرمه بلبسه، ثم نزعه وأرسل به إلى رجل من المشركين وصله به، ثم حرم لبس الحرير والديباج. وكأنه إنما لبسه أولًا تأكيدًا للتحريم، كما لبس خاتمًا من ذهب يومًا ثم نزعه [٣] ، فحرم لبسه على الرجال، وكما قال لعائشة في شأن بريرة: «اشترطي لأهلها الولاء» [٤] ، فلما اشترطته صعد عليه السلام المنبر فحرّمه، وكما أباح المتعة ثلاثًا ثم حرّمها لتأكيد أمر النكاح [٥] وقد صلى رسول الله ﷺ في خميصة لها علم، فلما سلم قال: شغلني النظر إلى هذه، اذهبوا بها إلى أبي جهم وائتوني بأنبجانيته [٦] يعني كساءه، فاختار لبس الكساء على الثوب الناعم، وكان شراك نعله قد أخلق فأبدل بسير جديد فصلى فيه، فلما سلم قال: «أَعِيدُوا الشِّرَاكَ الخَلِقَ وَانْزَعُوا هذا الجَدِيدَ فَإِنِّي نَظَرْتُ إِلَيْهِ فِي الصَّلاَةِ» ولبس خاتمًا من ذهب ونظر إليه على المنبر نظرة فرمى به فقال: «شَغَلَنِي هذا عَنْكُمْ، نَظْرَةٌ إِلَيْهِ وَنَظْرَةٌ إِلَيْكُمْ» [٧] ، وكان قد احتذى مرة

لبسه الحلة ففي الصحيحين من حديث البراء: رأيته في حلة حمراء [البخاري: ٥٨٤٨، ومسلم: ٢٣٣٧]. ولأبي داود من حديث ابن عباس حين خرج إلى الحرورية وعليه أحسن ما يكون من حلل اليمن وقال: «رأيت على رسول الله ﷺ أحسن ما يكون من الحلل» [أبو داود: ٤٠٣٧، وحسنه الألباني]. وفي الصحيحين من حديث عائشة: «أنه ﷺ قبض في ثوبين أحدهما إزار غليظ مما يصنع باليمن» [البخاري: ٣١٠٨، ومسلم: ٢٠٨٠]، وتقدم في آداب المعيشة. ولأبي داود والترمذي والنسائي من حديث أبي رمثة: «وعليه بردان أخضران» [أبي داود: ٤٢٠٦، والترمذي: ٢٨١٢، والنسائي: ١٥٧٢، وانظر صحيح أبي داود]، سكت عليه أبو داود واستغربه الترمذي. وللبزار من حديث قدامة الكلابي: «وعليه حلة حبرة» [قال سفيان - أحد الرواة X نراه حبرة] وفيه عريف بن إبراهيم لا يعرف، قاله الذهبي.

(١) **ضعيف**: حديث: كان قميصه كأنه قميص زيات. أخرجه الترمذي من حديث أنس بسند ضعيف: كان يكثر دهن رأسه وتسريح لحيته حتى كأن ثوبه ثوب زيات. [انظر الشمائل: ٢٦، وضعفه الألباني].

(٢) حديث: لبس يوما واحدا ثوبا سيراء من سندس قيمته مائتا درهم أهداه له المقوقس ثم نزعه. [مسلم: ٢٠٧٠ عن جابر، وفيه «أرسل به إلى عمر . . . وقال: نهاني عنه جبريل . . . . فباعه عمر بألفي درهم»، ولم أقف على إرساله لرجل من المشركين].

(٣) **صحيح**: حديث: لبس يوما خاتما من ذهب ثم نزعه. متفق عليه وقد تقدم. [البخاري: ٦٦٥١، ومسلم: ٢٠٩١ عن ابن عمر].

(٤) **صحيح**: حديث قال لعائشة في شأن بريرة «اشترطي لأهلها الولاء». متفق عليه من حديثها. [البخاري: ٢١٦٨، ومسلم: ١٥٠٤].

(٥) **صحيح**: حديث: أباح المتعة ثلاثا ثم حرمها. أخرجه مسلم من حديث سلمة بن الأكوع. [مسلم: ١٤٠٥].

(٦) **صحيح**: حديث: صلى رسول الله ﷺ في خميصة لها علم. متفق عليه، وقد تقدم في الصلاة. [البخاري: ٣٧٣، ومسلم: ٥٥٦ عن عائشة].

(٧) **صحيح**: حديث: لبس خاتما فنظر إليه على المنبر فرمى به وقال «شغلني هذا عنكم، نظرة إليه ونظرة إليكم». تقدم. [النسائي: ٥٢٨٩، وانظر السلسلة الصحيحة: ١١٩٢].

نعلين جديدين؛ فأعجبه حسنهما، فخر ساجدًا وقال: «أَعْجَبَنِي حُسْنُهُمَا فَتَوَاضَعْتُ لِرَبِّي خَشْيَةَ أَنْ يَمْقتني» ثم خرج بهما فدفعهما إلى أول مسكين رآه (١).

وعن سنان بن سعد قال: حيكت لرسول الله ﷺ جبة من صوف أنمار وجعلت حاشيتها سوداء فلما لبسها قال: «انْظُرُوا مَا أَحْسَنَهَا ومَا أَلْيَنَهَا» قال: فقام إليه أعرابي فقال يا رسول الله هبها لي، وكان رسول الله إذا سئل شيئًا لم يبخل به، قال: فدفعها إليه وأمر أن يحاك له واحدة أخرى، فمات وهي في المحاكة (٢).

وعن جابر قال دخل رسول الله ﷺ على فاطمة رضي الله تعالى عنها وهي تطحن بالرحى وعليها كساء من وبر الإبل، فلما نظر إليها بكى وقال: «يا فَاطِمَةُ؛ تَجَرَّعِي مَرَارَةَ الدُّنْيَا لِنَعِيمِ الأَبد، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ [الضحى: ٥] (٣) وقال ﷺ: «إِنَّ مِنْ خِيارَ أُمَّتِي فِيمَا أَنْبَأَنِي المَلأُ الأَعْلَى قَوْمًا يَضْحَكُونَ جَهْرًا مِنْ سَعَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَيَبْكُونَ سِرًّا مِنْ خَوْفِ عَذَابِهِ، مُؤْنَتُهُمْ عَلَى النَّاسِ خَفِيفَةٌ وَعَلَى أَنْفُسِهِمْ ثَقِيلَةٌ يَلْبَسُونَ الخُلْقَانَ وَيَتْبَعُونَ الرُّهْبَانَ؛ أَجْسَامُهُمْ فِي الأَرْضِ وَأَفْئِدَتُهُمْ عِنْدَ العَرْشِ (٤)، فهذه كانت سيرة رسول الله ﷺ في الملابس وقد أوصى أمته عامة باتباعه، إذ قال: «مَنْ أَحَبَّنِي فَلْيَسْتَنَّ بِسُنَّتِي» (٥)، وقال ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ مِنْ بَعْدِي، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ» (٦).

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] وأوصى رسول الله ﷺ عائشة رضي الله عنها خاصة وقال: «إِنْ أَرَدْتِ اللُّحُوقَ بِي فَإِيَّاكِ وَمُجَالَسَةَ الأَغْنِيَاءِ وَلا تَنْزَعِي ثَوْبًا حَتَّى تَرْقَعِيهِ» (٧) وعدّ على قميص عمر رضي الله عنه اثنتا عشرة رقعة بعضها من أدم. واشترى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ثوبًا بثلاثة دراهم ولبسه وهو في الخلافة

---

(١) حديث: احتذى نعلين جديدين فأعجبه حسنهما ثم خرج بهما فدفعهما إلى أول مسكين رآه. تقدم.

(٢) حديث سنان بن سعد: حيكت لرسول الله ﷺ جبة صوف من صوف أنمار». رواه أبو داود الطيالسي والطبراني من حديث سهل بن سعد دون قوله: وأمر أن يحاك له أخرى، فهي عند الطبراني فقط، وفيه زمعة بن صالح ضعيف، ويقع في كثير من نسخ الإحياء: سيار بن سعد وهو غلط.

(٣) حديث جابر: دخل ﷺ على فاطمة وهي تطحن بالرحى. أخرجه أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق بإسناد ضعيف.

(٤) حديث إن من خيار أمتي فيما آتاني العلى الأعلى قوما يضحكون جهرا من سعة رحمة الله تعالى، ويبكون سرا من خوف عذابه. تقدم، وهو عند الحاكم والبيهقي في الشعب وضعفه.

(٥) ضعيف: حديث «من أحبني فليستن بسنتي». تقدم في النكاح. [انظر السلسلة الضعيفة: ٢٥٠٩].

(٦) صحيح: حديث «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ». رواه أبو داود والترمذي وصححه، وابن ماجه من حديث العرباض بن سارية. [أبو داود: ٤٦٠٧، والترمذي: ٢٦٧٦، وابن ماجه: ٤٢، وانظر صحيح الترغيب: ٣٧].

(٧) ضعيف جداً حديث قال لعائشة «إن أردت اللحوق بي فإياك ومجالسة الأغنياء». أخرجه الترمذي وقال غريب، والحاكم وصححه من حديث عائشة، وقد تقدم. [الترمذي: ١٧٨٠، وانظر ضعيف الترغيب: ١٨٧٨].

وقطع كميه من الرسغين وقال: الحمد لله الذي كساني هذا من رياشه.

وقال الثوري وغيره: البس من الثياب ما لا يشهرك عند العلماء ولا يحقرك عند الجهال، وكان يقول: إن الفقير ليمرّ بي وأنا أصلي فأدعه يجوز، ويمرّ بي واحد من أبناء الدنيا وعليه هذه البزة فأمقته ولا أدعه يجوز. وقال بعضهم قوّمت ثوبي سفيان ونعليه بدرهم وأربعة دوانق. وقال ابن شبرمة: خير ثيابي ما خدمني وشرها ما خدمته. وقال بعض السلف: البس من الثياب ما يخلطك بالسوقة، ولا تلبس منها ما يشهرك فينظر إليك. وقال أبو سليمان الداراني: الثياب ثلاثة: ثوب لله وهو ما يستر العورة، وثوب للنفس وهو ما يطلب لينه، وثوب للناس وهو ما يطلب جوهره وحسنه. وقال بعضهم: من رق ثوبه رق دينه.

وكان جمهور العلماء من التابعين قيمة ثيابهم ما بين العشرين إلى الثلاثين درهمًا، وكان الخواص لا يلبس أكثر من قطعتين قميص ومئزر تحته، وربما يعطف ذيل قميصه على رأسه.

وقال بعض السلف: أوّل النسك الزي، وفي الخبر: «البَذَاذَةُ مِنَ الإيمَانِ» وفي الخبر: «مَنْ تَرَكَ ثَوْبَ جَمَالٍ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَيْهِ تَوَاضُعًا لِلَّهِ تَعَالَى وَابْتِغَاءَ لِوَجْهِهِ كَانَ عَلَى اللَّهِ أَنْ يَدَّخِرَ لَهُ مِنْ عَبْقَرِيِّ الجَنَّةِ فِي تخَاتِ اليَاقُوتِ» وأوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه: قل لأوليائي لا يلبسوا ملابس أعدائي ولا يدخلوا مداخل أعدائي فيكونوا أعدائي كما هم أعدائي.

ونظر رافع بن خديج إلى بشر بن مروان على منبر الكوفة وهو يعظ، فقال: انظروا إلى أميركم يعظ الناس وعليه ثياب الفساق ــ وكان عليه ثياب رقاق ــ وجاء عبد الله بن عامر بن ربيعة إلى أبي ذرّ في بزته، فجعل يتكلم في الزهد، فوضع أبي ذرّ راحته على فيه، وجعل يضرط به، فغضب ابن عامر، فشكاه إلى عمر فقال: أنت صنعت بنفسك، تتكلم في الزهد بين يديه بهذه البزة. وقال علي كرّم الله وجهه: إن الله تعالى أخذ على أئمة الهدى أن يكونوا في مثل أدنى أحوال الناس ليقتدي بهم الغني ولا يزري بالفقير فقره. ولما عوتب في خشونة لباسه قال: هو أقرب إلى التواضع وأجدر أن يقتدي به المسلم.

ونهى ﷺ عن التنعم وقال: «إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى عِبَادًا لَيْسُوا بِالمُتَنَعِّمِينَ» (١)، ورئي فضالة بن عبيد وهو والي مصر أشعث حافيًا فقيل له: أنت الأمير وتفعل هذا؟ فقال: نهانا رسول الله ﷺ عن الإرفاه، وأمرنا أن نحتفي أحيانًا (٢). وقال علي لعمر رضي الله عنهما: إن أردت أن تلحق بصاحبيك فارفع القميص ونكس الإزار واخصف النعل وكل دون الشبع. وقال عمر: اخشوشنوا وإياكم وزي العجم كسرى وقيصر، وقال علي كرم الله وجهه: من تزيا بزي قوم

---

(١) حسن: حديث: نهى عن التنعم وقال «إن لله عبادا ليسوا بالمتنعمين». أخرجه أحمد من حديث معاذ، وقد تقدم. [أحمد: ٢١٦٠٠، وانظر صحيح الترغيب: ٢١٤٦].

(٢) صحيح: حديث فضالة بن عبيد: نهانا رسول الله ﷺ عن الإرفاء، وأمرنا أن نحتفي أحيانا. أخرجه أبو داود بإسناد جيد. [أبو داود: ٤١٦٠، وانظر صحيح أبي داود، والإرفاء: الإكثار من الزينة، ونحتفي: نمشي حفاة].

فهو منهم. وقال رسول الله ﷺ: «إنَّ مِنْ شِرَارِ أُمَّتِي الَّذِينَ غُذُّوا بِالنَّعِيمِ يَطْلُبُونَ أَلْوَانَ الطَّعَامِ وَأَلْوَانَ الثِّيابِ وَيَتَشَدَّقُونَ فِي الكَلامِ» (١). وقال ﷺ: «إِزْرَةُ المُؤْمِنِ إِلَى أَنْصَافِ سَاقَيْهِ، وَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ فِيما بَيْنَهُ وَبَيْنَ الكَعْبَيْنِ، وَمَا أَسْفَلَ مِنْ ذلِكَ فَفِي النَّارِ، وَلا يَنْظُرُ اللَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ إِلَى مَنْ جَرَّ إِزَارَهُ بَطَرًا» (٢)، وقال أبو سليمان الداراني: قال رسول الله ﷺ: «لا يَلْبسُ الشَّعْرَ مِنْ أُمَّتِي إلاّ مُرَاءٍ أَوْ أَحْمَق» (٣)، وقال الأوزاعي: لباس الصوف في السفر سنَّة، وفي الحضر بدعة، ودخل محمد بن واسع على قتيبة بن مسلم وعليه جبة صوف؛ فقال له قتيبة: ما دعاك إلى مدرعة الصوف؟ فسكت فقال: أكلمك ولا تجيبني فقال أكره أن أقول زهدًا فأزكي نفسي، أو فقرًا فأشكو ربي. وقال أبو سليمان: لما اتخذ الله إبراهيم خليلًا أوحى إليه: أن وار عورتك من الأرض، وكان لا يتخذ من كل شيء إلا واحدًا سوى السراويل؛ فإنه كان يتخذ سراويلين فإذا غسل أحدهما لبس الآخر حتى لا يأتي عليه حال إلا وعورته مستورة، وقيل لسلمان الفارسي رضي الله عنه: مالك لا تلبس الجيد من الثياب؟ فقال: وما للعبد والثوب الحسن، فإذا عتق فله والله ثياب لا تبلى أبدًا. ويروى عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله أنه كان له جبة شعر وكساء شعر يلبسهما من الليل إذا قام يصلي. وقال الحسن لفرقد السبخي: تحسب أن لك فضلًا عن الناس بكسائك، بلغني أنّ أكثر أصحاب النار أصحاب الأكسية نفاقًا. وقال يحيى بن معين: رأيت أبا معاوية الأسود وهو يلتقط الخرق من المزابل ويغسلها ويلفقها ويلبسها، فقلت: إنك تكسي خيرًا من هذا فقال: ما ضرهم ما أصابهم في الدنيا جبر الله لهم بالجنة كل مصيبة، فجعل يحيى بن معين يحدّث بها ويبكي.

المهم الثالث: المسكن، وللزهد، فيه أيضًا ثلاث درجات.

أعلاها: أن لا يطلب موضعًا خاصًّا لنفسه فيقنع بزوايا المساجد كأصحاب الصفة.

وأوسطها: أن يطلب موضعًا خاصًّا لنفسه مثل كوخ مبني من سعف أو خص أو ما يشبهه.

وأدناها: أن يطلب حجرة مبنية إما بشراء أو إجارة؛ فإن كان قدر سعة المسكن على قدر حاجته من غير زيادة ولم يكن فيه زينة لم يخرجه هذا القدر عن آخر درجات الزهد، فإن طلب التشييد والتجصيص والسعة وارتفاع السقف أكثر من ستة أذرع فقد جاوز بالكلية حدّ الزهد

---

(١) **حسن لغيره**: حديث «إن من شرار أمتي الذين غذوا بالنعيم يطلبون ألوان الطعام». [انظر صحيح الترغيب: ٢٠٨٧ عن فاطمة بنت رسول الله ﷺ] رواه الطبراني من حديث أبي أمامة بإسناد ضعيف «سيكون رجال من أمتي يأكلون ألوان الطعام... الحديث» [انظر صحيح الترغيب: ٢٠٨٨ عن أبي أمامة] وآخره «أولئك شرار أمتي» وقد تقدم.

(٢) **صحيح**: حديث «إزرة المؤمن إلى أنصاف ساقيه». رواه مالك وأبو داود والنسائي وابن حبان من حديث أبي سعيد ورواه أيضا النسائي من حديث أبي هريرة قال محمد بن يحيى الذهلي: كلا الحديثين محفوظ. [أبو داود: ٤٠٩٣، ومالك: ١٦٩٩، وابن ماجه: ٣٥٧٣، وانظر صحيح الترغيب: ٢٠٢٩].

(٣) حديث أبي سليمان «لا يلبس الشعر من أمتي إلا مراء أو أحمق». لم أجد له إسنادا.

في المسكن؛ فاختلاف جنس البناء بأن يكون من الجص أو القصب أو بالطين أو بالآجر، واختلاف قدره بالسعة والضيق، واختلاف طوله بالإضافة إلى الأوقات بأن يكون مملوكًا أو مستأجرًا أو مستعارًا، والزهد مدخل في جميع ذلك. وبالجملة كل ما يراد للضرورة فلا ينبغي أن يجاوز حدّ الضرورة، وقدر الضرورة من الدنيا آلة الدين ووسيلته، وما جاوز ذلك فهو مضاد للدين والغرض من المسكن دفع المطر والبرد ودفع الأعين والأذى، وأقل الدرجات فيه معلوم، وما زاد عليه فهو الفضول والفضول كله من الدنيا وطالب الفضول والساعي له بعيد من الزهد جدًّا، وقد قيل: أوّل شيء ظهر من طول الأمل بعد رسول الله ﷺ التدريز والتشييد، يعني بالتدريز: كف دروز الثياب فإنها كانت تشل شلًا والتشييد: هو البنيان بالجص والآجر، وإنما كانوا يبنون بالسعف والجريد(١) .

وقد جاء في الخبر : «يأتي على الناس زمان يوشون ثيابهم كما توشى البرود اليمانية» وأمر رسول الله ﷺ العباس أن يهدم علية كان قد علا بها(٢) . ومرَّ عليه السلام بجنبذة معلاة فقال: «لمن هذه؟» قالوا لفلان، فلما جاءه الرجل أعرض عنه فلم يكن يقبل عليه كما كان فسأل الرجل أصحابه عن تغيير وجهه فأخبر، فذهب فهدمها؛ فمر رسول الله ﷺ بالموضع فلم يرها. فأخبر بأنه هدمها فدعا له بخير(٣) .

وقال الحسن : مات رسول الله ﷺ ولم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة(٤) . وقال النبي ﷺ : «إذا أَرَادَ اللَّهِ بِعَبْدٍ شَرًّا أَهْلَكَ مَالَهُ فِي المَاءِ وَالطِّينِ(٥) ، وقال عبد الله بن

---

(١) حديث: كانت الثياب تشل شلا، وكانوا يبنون بالسعف والجريد أماشل الثياب من غير كف. فروى الطبراني والحاكم: «أن عمر قطع ما فضل عن الأصابع من غير كف وقال: هكذا رأيت رسول الله ﷺ». وأما البناء ففي الصحيحين من حديث أنس في قصة بناء مسجد المدينة: «فصفوا النخل قبلة المسجد وجعلوا عضادتيه الحجارة... الحديث» [البخاري: ١٨٦٨، ومسلم: ٥٢٤]، ولهما من حديث أبي سعيد: «كان المسجد على عريش فوكف المسجد» [البخاري: ٢٠٢٧، ومسلم: ١١٦٧، وكف: سال من سقفه المطر].

(٢) ضعيف مرسل : حديث: أمر رسول الله ﷺ العباس أن يهدم علية له كان قد علاها. رواه الطبراني من رواية أبي العالية أن العباس بنى غرفة فقال له النبي ﷺ «اهدمها... الحديث» وهو منقطع. [انظر ضعيف الترغيب: ١١٧٧].

(٣) حسن صحيح : حديث: مر بجنبذة معلاة فقال «لمن هذه؟ » قالوا: لفلان، فلما جاءه الرجل أعرض عنه. أخرجه أبو داود من حديث أنس بإسناد جيد بلفظ: فرأى قبة مشرفة الحديث، والجنبذة القبة. [أبو داود: ٥٢٣٧، وانظر صحيح الترغيب: ١٨٧٤]. (بجنبذة معلاة: قبة مرتفعة)

(٤) ضعيف : حديث الحسن: مات رسول الله ﷺ ولم يضع لبنة على لبنة. رواه ابن حبان في الثقات، وأبو نعيم في الحلية هكذا مرسلا. وللطبراني في الأوسط من حديث عائشة «من سأل عني أو سره أن ينظر إلي فلينظر إلى أشعث شاحب مشمر لم يضع لبنة على لبنة... الحديث» وإسناده ضعيف. [انظر ضعيف الترغيب: ١٨٩٦ عن عائشة].

(٥) ضعيف : حديث «إذا أراد الله بعبد شرا أهلك ماله في الماء والطين». رواه أبو داود من حديث عائشة بإسناد جيد «خضر له في الطين واللبن حتى يبني». [انظر ضعيف الجامع: ٣٣٦ عن جابر، قلت: ولم أره عند أبي داود ولا عن عائشة].

عمر: مرَّ علينا رسول الله ﷺ ونحن نعالج خصًّا، فقال: «ما هذا؟» قلنا خص لنا قد وهى فقال: «أَرَى الأَمْرَ أَعْجَلُ مِنْ ذلِكَ» (١)، واتخذ نوح عليه السلام بيتًا من قصب، فقيل له: لو بنيت؟ فقال: هذا كثير لمن يموت.

وقال الحسن: دخلنا على صفوان بن محيريز وهو في بيت من قصب قد مال عليه، فقيل له: لو أصلحته؟ فقال: كم من رجل قد مات وهذا قائم على حاله.

وقال النبي ﷺ: «مَنْ بَنَى فَوْقَ ما يَكْفِيهِ كُلِّفَ أَنْ يَحْمِلَهُ يَوْم القِيَامَةِ» (٢)، **وفي الخبر**: «كُلُّ نَفَقَةٍ لِلْعَبْدِ يُؤْجَرُ عَلَيْهَا إلاَّ مَا أَنْفَقَهُ فِي المَاءِ وَالطِّينِ» (٣)، وفي قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصص :٨٣] إنه الرئاسة والتطاول في البنيان.

وقال ﷺ: «كُلُّ بِنَاءٍ وَبَالٌ عَلَى صَاحِبِهِ يَوْمَ القِيامَةِ إلاّ مَا أَكَنَّ مِنْ حَرٍّ أَوْ بَرْدٍ» (٤)، وقال ﷺ للرجل الذي شكا إليه ضيق منزله: «اتَّسِعْ فِي السَّمَاءِ» (٥)، أي في الجنة، ونظر عمر رضي الله عنه في طريق الشام إلى صرح قد بني بجص وآجر، فكبَّر وقال: ما كنت أظنّ أن يكون في هذه الأمة من يبني بنيان هامان لفرعون؛ يعني قول فرعون ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ [القصص :٣٨] يعني به الآجر، ويقال: إنّ فرعون هو أوّل من بني له بالجص والآجر، وأوّل من عمله هامان، ثم تبعهما الجبابرة، وهذا هو الزخرف، ورأى بعض السلف جامعًا في بعض الأمصار فقال: أدركت هذا المسجد مبنيًا من الجريد والسعف، ثم رأيته مبنيًّا من رهص، ثم رأيته الآن مبنيًا باللبن، فكان أصحاب السعف خيرًا من أصحاب الرهص، وكان أصحاب الرهص خيرًا من أصحاب اللبن.

وكان في السلف من يبني داره مرارًا في مدة عمره لضعف بنائه وقصر أمله وزهده في إحكام البنيان، وكان منهم من إذا حج أو غزا نزع بيته أو وهبه لجيرانه، فإذا رجع أعاده، وكانت بيوتهم من الحشيش والجلود وهي عادة العرب الآن ببلاد اليمن، وكان ارتفاع بناء

---

(١) **صحيح**: حديث عبد الله بن عمر: مر علينا رسول الله ﷺ ونحن نعالج خصا لنا قد وهى». رواه أبو داود والترمذي وصححه ابن ماجه. [أبو داود: ٥٢٣٦، والترمذي: ٢٣٣٥، وابن ماجه: ٤١٦٠، وانظر صحيح أبي داود].

(٢) **ضعيف جداً**: حديث «من بنى فوق ما يكفيه كلف يوم القيامة أن يحمله». رواه الطبراني من حديث ابن مسعود بإسناد فيه لين وانقطاع. [انظر ضعيف الترغيب: ١١٧٦].

(٣) **صحيح**: حديث «كل نفقة العبد يؤجر عليهم إلا ما أنفقه في الماء والطين». رواه ابن ماجه من حديث خباب بن الأرت بإسناد جيد بلفظ: إلا في التراب أو قال في البناء. [ابن ماجه: ٤١٦٣، وانظر صحيح الجامع: ٤٥٦٦].

(٤) **حسن صحيح**: حديث «كل بناء وبال على صاحبه إلا ما أكن من حر أو برد». رواه أبو داود من حديث أنس بإسناد جيد بلفظ «إلا ما لا» يعني ما لا بد منه. [أبو داود: ٥٢٣٧، وانظر صحيح الترغيب: ١٨٧٤].

(٥) **حديث قال للرجل الذي شكى إليه ضيق منزله «اتسع في السماء»** قال المصنف: أي في الجنة. رواه أبو داود في المراسيل من اليسع بن المغيرة قال: شكى خالد بن الوليد فذكره، وقد وصله الطبراني فقال عن اليسع بن المغيرة عن أبيه عن خالد بن الوليد، إلا أنه قال: ارفع إلى السماء واسأل الله السعة، وفي إسناده لين.

السقف قامة وبسطة. قال الحسن: كنت إذا دخلت بيوت رسول الله ﷺ ضربت بيدي إلى السقف. وقال عمرو بن دينار: إذا أعلى العبد البناء فوق ستة أذرع ناداه ملك: إلى أين يا أفسق الفاسقين؟ وقد نهى سفيان عن النظر إلى بناء مشيد وقال: لولا نظر الناس لما شيدوا فالنظر إليه معين عليه. وقال الفضيل: إني لم أعجب ممن بنى وترك، ولكني أعجب ممن نظر إليه ولم يعتبر. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: يأتي قوم يرفعون الطين ويضعون الدين ويستعملون البراذين، يصلون إلى قبلتكم ويموتون على غير دينكم.

المهم الرابع: أثاث البيت، وللزهد فيه أيضًا درجات:

أعلاها: حال عيسى المسيح صلوات الله عليه وسلامه وعلى كل عبد مصطفى، إذ كان لا يصحبه إلا مشط وكوز فرأى إنسانًا يمشط لحيته بأصابعه، فرمى بالمشط، ورأى آخر يشرب من النهر بكفيه فرمى بالكوز، وهذا حكم كل أثاث، فإنه إنما يراد لمقصود، فإذا استغنى عنه فهو وبال في الدنيا والآخرة. وما لا يستغنى عنه فيقتصر فيه على أقل الدرجات وهو الخزف في كل ما يكفي فيه الخزف ولا يبالي بأن يكون مكسور الطرف إذا كان المقصود يحصل به.

وأوسطها: أن يكون له أثاث بقدر الحاجة صحيح في نفسه ولكن يستعمل الآلة الواحدة في مقاصد، كالذي معه قصعة يأكل فيها ويشرب فيها ويحفظ المتاع فيها، وكان السلف يستحبون استعمال آلة واحدة في أشياء للتخفيف.

وأعلاها: أن يكون له بعدد كل حاجة آلة من الجنس النازل الخسيس، فإن زاد في العدد أو في نفاسة الجنس خرج عن جميع أبواب الزهد وركن إلى طلب الفضول، ولينظر إلى سيرة رسول الله ﷺ وسيرة الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، فقد قالت عائشة رضي الله عنها: كان ضجاع رسول الله ﷺ الذي ينام عليه وسادة من أدم حشوها ليف [(١)]. وقال الفضيل: ما كان فراش رسول الله ﷺ إلا عباءة مثنية ووسادة من أدم حشوها ليف [(٢)].

وروي: أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه دخل على رسول الله ﷺ وهو نائم على سرير مرمول بشريط، فجلس، فرأى أثر الشريط في جنبه عليه السلام، فدمعت عينا عمر، فقال له النبي ﷺ: «مَا الَّذِي أَبْكَاكَ يَا ابْنَ الخَطَّابِ؟» قال: ذكرت كسرى وقيصر وما هما فيه من

---

(١) **صحيح**: حديث عائشة: كان ضِجَاعُ رسول الله ﷺ الذي ينام عليه وسادة من أدم حشوها ليف. رواه أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح، وابن ماجه. [أبو داود: ٤١٤٧، والترمذي: ٢٤٦٩، وانظر صحيح أبي داود، والضجاع: الوسادة].

(٢) حديث: ما كان فراش رسول الله ﷺ إلا عباءة مثنية [انظر السلسلة الصحيحة: ٢٤٨٤ عن عائشة] ووسادة من أدم حشوها ليف [بنحو الحديث السابق]. رواه الترمذي في الشمائل من حديث حفصة بقصة العباءة، وقد تقدم، ومن حديث عائشة بقصة الوسادة وقد تقدم قبله بعض طرقه.

الملك، وذكرتك وأنت حبيب الله وصفيه ورسوله نائم على سرير مرمول بالشريط؟ فقال ﷺ: «أَمَا تَرْضَى يا عُمَرُ أَنْ تَكُونَ لَهُم الدُّنْيَا وَلَنَا الآخِرَةُ» قال: بلى يا رسول الله؟ قال: «فذلك كذلك» (١)، ودخل رجل على أبي ذر فجعل يقلب بصره في بيته فقال: يا أبا ذر، ما أرى في بيتك متاعًا ولا غير ذلك من الأثاث فقال: إن لنا بيتًا نوجه إليه صالح متاعنا، فقال: إنه لا بدّ لك من متاع ما دمت هاهنا، فقال: إن صاحب المنزل لا يدعنا فيه.

ولما قدم عمير بن سعيد أمير حمص على عمر رضي الله عنهما قال له: ما معك من الدنيا؟ فقال: معي عصاي أتوكأ عليها وأقتل بها حية إن لقيتها، ومعي جرابي أحمل فيه طعامي، ومعي قصعتي آكل فيها وأغسل فيها رأسي وثوبي. ومعي مطهرتي أحمل فيها شرابي وطهوري للصلاة، فما كان بعد هذا من الدنيا فهو تبع لما معي، فقال عمر: صدقت رحمك الله، وقدم رسول الله ﷺ من سفر فدخل على فاطمة رضي الله عنها فرأى على باب منزلها سترًا وفي يديها قلبين من فضة، فرجع، فدخل عليها أبو رافع وهي تبكي، فأخبرته برجوع رسول الله ﷺ فسأله أبو رافع فقال: «مِنْ أَجْلِ السِّتْرِ وَالسِّوَارَيْنِ» فأرسلت بهما بلالًا إلى رسول الله ﷺ، وقالت: قد تصدّقت بهما فضعهما حيث ترى، فقال ﷺ: «اذْهَبْ فَبِعْهُ وَادْفَعْهُ إِلَى أَهْلِ الصُّفَّةِ» فباع القلبين بدرهمين ونصف وتصدّق بهما عليهم، فدخل عليها فقال: «بِأَبِي أَنْتَ قَدْ أَحْسَنْتَ» (٢)، ورأى رسول الله ﷺ على باب عائشة سترًا فهتكه وقال: «كُلَّمَا رَأَيْتُهُ ذَكَرْتُ الدُّنْيَا أَرْسِلِيهِ إِلَى آلِ فُلَانٍ» (٣)، وفرشت له عائشة ذات ليلة فراشًا جديدًا وقد كان ينام على عباءة مثنية؛ فما زال يتقلب ليلته، فلما أصبح قال لها: «أَعِيدِي العَبَاءَةَ الخَلَقَةَ وَنَحِّي هذا الفِرَاشَ عَنِّي قَدْ أَسْهَرَنِي اللَّيْلَةَ» (٤)، وكذلك أتته دنانير خمسة أو ستة ليلًا فبيتها، فسهر ليلته

---

(١) حسن صحيح: حديث دخل عمر على رسول الله ﷺ وهو نائم على سرير مرمول بشريط النخل فجلس فرأى أثر الشريط في جنبه عليه السلام». متفق عليه من حديثه، وقد تقدم. [البخاري: ٢٤٦٨، ومسلم: ١٤٧٩ بنحوه، والأدب المفرد: ١١٦٣وللفظ له].

(٢) ضعيف: حديث: قدم من سفره فدخل على فاطمة فرأى على باب منزلها ستر وفي يديها قلبين من فضة فرجع». لم أره مجموعا ولأبي داود وابن ماجه من حديث سفينة بإسناد جيد: أنه ﷺ جاء فوضع يديه على عضادتي الباب فرأى القرام قد ضرب في ناحية البيت فرجع، فقالت فاطمة لعلي: أنظر فأرجعه... [أبي داود: ٣٧٥٥، وابن ماجه: ٣٣٦٠، وانظر صحيح أبي داود، وحسنه الألباني]. الحديث رواه النسائي من حديث ثوبان بإسناد جيد قال: جاءت ابنة هبيرة إلى النبي ﷺ وفي يدها فتخ من ذهب... الحديث. [النسائي: ٥١٤١، وانظر صحيح الترغيب: ٧٧١، قلت: والحديث بلفظ قريب عند أبي داود: ٤٢١٣ عن ثوبان، وانظر ضعيف أبي داود، وقال الألباني: ضعيف الإسناد منكر]. وفيه: أنه وجد في يد فاطمة سلسلة من ذهب. وفيه «يقول الناس فاطمة بنت محمد في يدها سلسلة من نار» وأنه خرج ولم يقعد، فأمرت بالسلسلة فبيعت فاشترت بثمنها عبدًا فأعتقته، فلما سمع قال «الحمد لله الذي نجى فاطمة من النار».

(٣) صحيح: حديث: رأى على باب عائشة سترا فهتكه. أخرجه الترمذي وحسنه، والنسائي في الكبرى من حديثها. [الترمذي: ٢٤٦٨، وانظر صحيح الترمذي].

(٤) صحيح: حديث: فرشت له عائشة ذات ليلة فراشا جديدا وقد كان ﷺ ينام على عباءة مثنية». رواه ابن

حتى أخرجه من آخر الليل. قالت عائشة رضي الله عنها: فنام حينئذ حتى سمعت غطيطه ثم قال: «مَا ظَنُّ مُحَمَّدٍ بِرَبِّهِ لَوْ لَقِيَ اللَّه وَهذِهِ عِنْدَهُ»(١) ، وقال الحسن: أدركت سبعين من الأخيار ما لأحدهم إلا ثوبه وما وضع أحدهم بينه وبين الأرض ثوبًا قط: كان إذا أراد النوم باشر الأرض بجسمه وجعل ثوبه فوقه.

المهم الخامس: المنكح، وقد قال قائلون: لا معنى للزهد في أصل النكاح ولا في كثرته، وإليه ذهب سهل بن عبد الله وقال: قد حبب إلى سيد الزاهدين النساء فكيف نزهد فيهن؟ ووافقه على هذا القول ابن عيينة وقال: كان أزهد الصحابة علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكان له أربع نسوة وبضع عشرة سرية.

والصحيح ما قاله أبو سليمان الداراني رحمه الله إذ قال: كل ما شغلك عن الله من أهل ومال وولد فهو عليك مشئوم، والمرأة قد تكون شاغلًا عن الله.

وكشف الحق فيه: أنه قد تكون العزوبة أفضل في بعض الأحوال كما سبق في كتاب النكاح، فيكون ترك النكاح من الزهد، وحيث يكون النكاح أفضل لدفع الشهوة الغالبة فهو واجب، فكيف يكون تركه من الزهد وإن لم يكن عليه آفة في تركه ولا فعله ولكن ترك النكاح احترازًا عن ميل القلب إليهن والأنس بهن بحيث يشتغل عن ذكر الله فترك ذلك من الزهد، فإن علم أن المرأة لا تشغله عن ذكر الله ولكن ترك ذلك احترازًا من لذة النظر والمضاجعة والمواقعة فليس هذا من الزهد أصلًا، فإنّ الولد مقصود لبقاء نسله، وتكثير أمة محمد ﷺ من القربات، واللذة التي تلحق الإنسان فيما هو من ضرورة الوجود لا تضره، إذ لم تكن هي المقصد والمطلب، وهذا كمن ترك أكل الخبز وشرب الماء احترازًا من لذة الأكل والشرب وليس ذلك من الزهد في شيء؛ لأن في ترك ذلك فوات بدنه، فكذلك في ترك النكاح انقطاع نسله، فلا يجوز أن يترك النكاح زهدًا في لذته من غير خوف آفة أخرى، وهذا ما عناه سهل لا محالة، ولأجله نكح رسول الله ﷺ. وإذا ثبت هذا فمن حاله حال رسول الله ﷺ في أنه لا

حبان في كتاب أخلاق النبي ﷺ من حديثها قالت: دخلت علي امرأة من الأنصار فرأت فراش رسول الله ﷺ عباءة مثنية فانطلقت فبعثت إلي بفراش حشوه صوف، فدخل علي رسول الله ﷺ فقال «ما هذا... الحديث» وفيه: أنه أمرها برده ثلاث مرات فردته، وفيه مجالد بن سعيد مختلف فيه، والمعروف حديث حفصة المتقدم ذكره من الشمائل. [انظر السلسلة الصحيحة: ٢٤٨٤].

(١) حديث: أتته دنانير خمسة أو ستة عشاء فبيتها، فسهر ليله وفيه «ما ظن محمد بربه لو لقي الله وهذه عنده». أخرجه أحمد من حديث عائشة بإسناد حسن أنه قال في مرضه الذي مات فيه «يا عائشة، ما فعلت بالذهب» [أحمد: ٢٣٧٠٢، وانظر السلسلة الصحيحة: ٢٦٥٣] فجاءت ما بين الخمسة إلى الثمانية إلى التسعة فجعل يقلبها بيده ويقول «ما ظن محمد... الحديث» وزاد «أنفقيها» وفي رواية: سبعة أو تسعة دنانير، وله من حديث أم سلمة بإسناد صحيح: «دخل على رسول الله ﷺ وهو شاهم الوجه، قالت: فحسبت ذلك من وجع، فقلت: يا نبي الله، ما لك شاهم الوجه؟ فقال «من أجل الدنانير السبعة التي أتتنا أمس أمسينا وهي في خصم الفراش» [أحمد: ٢٥٩٧٥، ٢٦١٣٢] وفي رواية «أمسينا ولم ننفقها».

يشغله كثرة النسوة ولا اشتغال القلب بإصلاحهن والإنفاق عليهن[١] فلا معنى لزهده فيهن حذرًا من مجرّد لذة الوقاع والنظر، ولكن أنى يتصوّر ذلك لغير الأنبياء والأولياء، فأكثر الناس يشغلهم كثرة النسوان، فينبغي أن يترك الأصل إن كان يشغله، وإن لم يشغله وكان يخاف من أن تشغله الكثرة منهن أو جمال المرأة فلينكح واحدة غير جميلة وليراع قلبه في ذلك.

قال أبو سليمان: الزهد في النساء: أن يختار المرأة الدون أو اليتيمة على المرأة الجميلة والشريفة.

وقال الجنيد رحمه الله: أحب للمريد المبتدىء أن لا يشغل قلبه بثلاث وإلا تغير حاله: التكسب، وطلب الحديث والتزوّج. وقال: أحب للصوفي أن لا يكتب ولا يقرأ لأنه أجمع لهمه؛ فإذا ظهر أن لذة النكاح كلذة الأكل فما شغل عن الله فهو محذور فيهما جميعًا.

المهم السادس: ما يكون وسيلة إلى هذه الخمسة، وهو المال والجاه: أما الجاه فمعناه ملك القلوب بطلب محل فيها ليتوصل به إلى الاستعانة في الأغراض والأعمال، وكل من لا يقدر على القيام بنفسه في جميع حاجاته وافتقر إلى من يخدمه افتقر إلى جاه لا محالة في قلب خادمه؛ لأنه إن لم يكن له عنده محل وقدر لم يقم بخدمته، وقيام القدر والمحل في القلوب هو الجاه؛ وهذا له أول قريب ولكن يتمادى به إلى هاوية لا عمق لها، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه، وإنما يحتاج إلى المحل في القلوب إما لجلب نفع أو لدفع ضر أو لخلاص من ظلم، فأما النفع فيغني عنه المال فإن من يخدم بأجرة يخدم وإن لم يكن عنده للمستأجر قدر، وإنما يحتاج إلى الجاه في قلب من يخدم بغير أجرة، وأما دفع الضر فيحتاج لأجله إلى الجاه في بلد لا يكمل فيه العدل، أو يكون بين جيران يظلمونه ولا يقدر على دفع شرهم إلا بمحل له في قلوبهم أو محل له عند السلطان، وقدر الحاجة فيه لا ينضبط لا سيما إذا انضم إليه الخوف وسوء الظن بالعواقب، والخائض في طلب الجاه سالك طريق الهلاك، بل حق الزاهد أن لا يسعى لطلب المحل في القلوب أصلًا فإن اشتغاله بالدين والعبادة يمهد له من المحل في القلوب ما يدفع به عند الأذى ولو كان بين الكفار، فكيف بين المسلمين، فأما التوهمات والتقديرات التي تحوج إلى زيادة في الجاه على الحاصل بغير كسب فهي أوهام كاذبة، إذ من طلب الجاه، أيضًا لم يخل عن أذى في بعض الأحوال فعلاج ذلك بالاحتمال والصبر أولى من علاجه بطلب الجاه فإذن طلب المحل في القلوب لا رخصة فيه أصلًا، واليسير منه داع إلى الكثير، وضراوته أشد من ضراوة الخمر فليحترز من قليله وكثيره.

وأما المال فهو ضروري في المعيشة أعني القليل منه، فإن كان كسوبًا فإذا اكتسب حاجة يومه فينبغي أن يترك الكسب، كان بعضهم إذا اكتسب حبتين رفع سفطه وقام، هذا شرط

(١) حديث: كان لا يشغله كثرة النسوة ولا اشتغال القلب بإصلاحهن والإنفاق عليهن. تقدم في النكاح.

الزهد؛ فإن جاوز ذلك إلى ما يكفيه أكثر من سنة فقد خرج عن حدّ ضعفاء الزهاد وأقويائهم جميعًا، وإن كانت له ضيعة ولم يكن له قوّة يقين في التوكل فأمسك منها مقدار ما يكفي ريعه لسنة واحدة فلا يخرج بهذا القدر عن الزهد بشرط أن يتصدّق بكل ما يفضل عن كفاية سنته، ولكن يكون من ضعفاء الزهاد، فإن شرط التوكل في الزهد كما شرطه أويس القرني رحمه الله، فلا يكون هذا من الزهاد.

وقولنا: إنه خرج من حدّ الزهاد نعني به أن ما وعد للزاهدين في الدار الآخرة من المقامات المحمودة لا يناله، وإلا فاسم الزهد قد لا يفارقه بالإضافة إلى ما زهد فيه من الفضول والكثرة، وأمر المنفرد في جميع ذلك أخف من أمر المعيل، وقد قال أبو سليمان: لا ينبغي أن يرهق الرجل أهله إلى الزهد بل يدعوهم إليه، فإن أجابوا وإلا تركهم وفعل بنفسه ما شاء: معناه أن التضييق المشروط على الزاهد يخصه ولا يلزمه. كل ذلك في عياله، نعم لا ينبغي أن يجيبهم أيضًا فيما يخرج عن حدّ الاعتدال، وليتعلم من رسول الله ﷺ: إذ انصرف من بيت فاطمة رضوان الله عليها بسبب ستر وقلبين؛ لأنّ ذلك من الزينة لا من الحاجة، فإذًا ما يضطرّ الإنسان إليه من جاه ومال ليس بمحذور، بل الزائد على الحاجة سم قاتل، والمقتصر عن الضرورة دواء نافع، وما بينهما درجات متشابهة، فما يقرب من الزيادة وإن لم يكن سمًّا قاتلًا فهو مضر، وما يقرب من الضرورة فهو وإن لم يكن دواء نافعًا لكنه قليل الضرر والسم محظور شربه، والدواء فرض تناوله، وما بينهما مشتبه أمره، فمن احتاط فإنما يحتاط لنفسه، ومن تساهل فإنما يتساهل على نفسه، ومن استبرأ لدينه وترك ما يريبه إلى ما لا يريبه ورد نفسه إلى مضيق الضرورة فهو الآخذ بالحزم، وهو من الفرق الناجية لا محالة. والمقتصر على قدر الضرورة والمهم لا يجوز أن ينسب إلى الدنيا، بل ذلك القدر من الدنيا هو عين الدين لأنه شرط الدين والشرط من جملة المشروط.

ويدل عليه ما روي أنّ إبراهيم الخليل عليه السلام أصابته حاجة فذهب إلى صديق له يستقرضه شيئًا فلم يقرضه، فرجع مهمومًا، فأوحى الله تعالى إليه: لو سألت خليلك لأعطاك، فقال: يا رب عرفت مقتك للدنيا فخفت أن أسألك منها شيئًا، فأوحى الله تعالى إليه: ليس الحاجة من الدنيا. فإذن قدر الحاجة من الدين، وما وراء ذلك وبال في الآخرة، وهو في الدنيا أيضًا كذلك يعرفه من يخبر أحوال الأغنياء وما عليهم من المحنة في كسب المال وجمعه وحفظه واحتمال الذل فيه، وغاية سعادته به أن يسلم لورثته فيأكلونه، وربما يكونون أعداء له، وقد يستعينون به على المعصية فيكون هو معينًا لهم عليها، ولذلك شبه جامع الدنيا ومتبع الشهوات بدود القز لا يزال ينسج على نفسه حيًّا ثم يروم الخروج فلا يجد مخلصًا فيموت ويهلك بسبب عمله الذي عمله بنفسه، فكذلك كل من اتبع شهوات الدنيا فإنما يحكم على قلبه بسلاسل تقيده بما يشتهيه حتى تتظاهر عليه السلاسل فيقيده المال والجاه والأهل والولد

وشماتة الأعداء ومراءاة الأصدقاء وسائر حظوظ الدنيا، فلو خطر له أنه قد أخطأ فيه فقصد الخروج من الدنيا لم يقدر عليه ورأى قلبه مقيدًا بسلاسل وأغلال لا يقدر على قطعها، ولو ترك محبوبًا من محابه باختياره كاد أن يكون قاتلًا لنفسه وساعيًا في هلاكه إلى أن يفرق ملك الموت بينه وبين جميعها دفعة واحدة. فتبقى السلاسل في قلبه معلقة بالدنيا التي فاتته وخلفها فهي تجاذبه إلى الدنيا، ومخالب ملك الموت قد علقت بعروق قلبه تجذبه إلى الآخرة، فيكون أهون أحواله عند الموت أن يكون كشخص ينشر بالمنشار ويفصل أحد جانبيه عن الآخر بالمجاذبة من الجانبين، والذي ينشر بالمنشار إنما ينزل المؤلم ببدنه ويؤلم قلبه بذلك بطريق السراية من حيث أثره، فما ظنك بألم يتمكن أوّلًا من صميم القلب مخصوصًا به لا بطريق السراية إليه من غيره، فهذا أوّل عذاب يلقاه قبل ما يراه من حسرة فوت النزول في أعلى عليين وجوار رب العالمين، فبالنزوع إلى الدنيا يحجب عن لقاء الله تعالى، وعند الحجاب تتسلط عليه نار جهنم، إذ النار غير مسلطة إلا على محجوب. قال الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ﴾ [المطففين: ١٥-١٦] فرتب العذاب بالنار على ألم الحجاب، وألم الحجاب كاف من غير علاوة النار، فكيف إذا أضيفت العلاوة إليه؟ فنسأل الله تعالى أن يقرّر في أسماعنا ما نفث في روع رسول الله ﷺ، حيث قيل له: أحبب من أحببت فإنك مفارقه[1] وفي معنى ما ذكرناه من المثال قول الشاعر:

كَدُودٌ كَدُودِ القز ينسج دائمًا ... ويهلك غما وسط ما هو ناسجُهْ

ولما انكشف لأولياء الله تعالى أنّ العبد مهلك نفسه بأعماله واتباعه هوى نفسه إهلاك دود القز نفسه: رفضوا الدنيا بالكلية، حتى قال الحسن: رأيت سبعين بدريًّا كانوا فيما أحل الله لهم أزهد منكم فيما حرّم الله عليكم. وفي لفظ آخر: كانوا بالبلاء أشدّ فرحًا منكم بالخصب والرخاء لو رأيتموهم قلتم مجانين، ولو رأوا خياركم قالوا ما لهؤلاء من خلاق، ولو رأوا أشراركم قالوا ما يؤمن هؤلاء بيوم الحساب، وكان أحدهم يعرض له المال الحلال فلا يأخذه ويقول: أخاف أن يفسد على قلبي، فمن كان له قلب فهو لا محالة يخاف من فساده والذين أماتت حب الدنيا قلوبهم فقد أخبر الله عنهم إذ قال تعالى: ﴿وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾ [يونس: ٧] وقال عز وجل: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]. وقال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٢٩ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [النجم: ٢٩-٣٠] فأحال ذلك كله على الغفلة وعدم العلم، ولذلك قال رجل لعيسى عليه السلام: احملني معك في سياحتك، فقال: أخرج مالك والحقني.

---

(١) **حسن لغيره:** حديث: نفث في روعه أحبب من أحببت فإنك مفارقه. تقدم. [انظر صحيح الترغيب: ٦٢٧].

فقال: لا أستطيع، فقال عيسى عليه السلام: بعجب يدخل الغني الجنة - أو قال بشدة -.

وقال بعضهم: ما من يوم ذر شارقه إلا وأربعة أملاك ينادون في الآفاق بأربعة أصوات: ملكان بالمشرق وملكان بالمغرب، يقول أحدهم بالمشرق: يا باغي الخير هلم، ويا باغي الشر أقصر، ويقول الآخر: اللهم أعط منفقًا خلفًا وأعط ممسكًا تلفًا. ويقول اللذان بالمغرب، أحدهما: لدوا للموت وابنوا للخراب. ويقول الآخر: كلوا وتمتعوا لطول الحساب.

بيان علامات الزهد:

اعلم أنه قد ظنّ أن تارك المال زاهد، وليس كذلك؛ فإنّ ترك المال وإظهار الخشونة سهل على من أحب المدح بالزهد، فكم من الرهابين من ردوا أنفسهم كل يوم إلى قدر يسير من الطعام ولازموا ديرًا لا باب له، وإنما مسرة أحدهم معرفة الناس حاله ونظرهم إليه ومدحهم له، فذلك لا يدل على الزهد دلالة قاطعة، بل لا يعدّ من الزهد في المال والجاه جميعًا حتى يكمل الزهد في جميع حظوظ النفس من الدنيا بل قد يدعي جمال الزهد مع لبس الأصواف الفاخرة والثياب الرفيعة، كما قال الخوّاص في وصف المدعين إذ قال: وقوم ادعوا الزهد ولبسوا الفاخر من اللباس يموّهون بذلك على الناس ليهدى إليهم مثل لباسهم، لئلا ينظر إليهم بالعين التي ينظر بها إلى الفقراء فيحتقروا فيعطوا كما تعطى المساكين، ويحتجون لنفوسهم باتباع العلم وأنهم على السنة، وأن الأشياء داخلة إليهم وهم خارجون منها وإنما يأخذون بعلة غيرهم. هذا إذا طولبوا بالحقائق وألجئوا إلى المضايق، وكل هؤلاء أكلة الدنيا بالدين لم يعنوا بتصفية أسرارهم ولا بتهذيب أخلاق نفوسهم، فظهرت عليهم صفاتهم فغلبتهم فادعوها حالًا لهم، فهم مائلون إلى الدنيا متبعون للهوى. فهذا كله كلام الخواص رحمه الله؛ فإذن معرفة الزهد أمر مشكل، بل حال الزهد على الزهد مشكل.

وينبغي أن يعوّل في باطنه على ثلاث علامات:

العلامة الأولى: أن لا يفرح بموجود ولا يحزن على مفقود، كما قال تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣] بل ينبغي أن يكون بالضدّ من ذلك: وهو أن يحزن بوجود المال ويفرح بفقده.

العلامة الثانية: أن يستوي عنده ذامه ومادحه، فالأوّل علامة الزهد في المال والثاني علامة الزهد في الجاه.

العلامة الثالثة: أن يكون أنسه بالله تعالى والغالب على قلبه حلاوة الطاعة إذ لا يخلو القلب عن حلاوة المحبة إما محبة الدنيا وإما محبة الله، وهما في القلب كالماء والهواء في القدح، فالماء إذا دخل خرج الهواء ولا يجتمعان، وكل من أنس بالله اشتغل به ولم يشتغل بغيره، ولذلك قيل لبعضهم: إلى ماذا أفضى بهم الزهد؟ فقال: إلى الأنس بالله؛ فأما الأنس

بالدنيا وبالله فلا يجتمعان.

وقد قال أهل المعرفة: إذا تعلق الإيمان بظاهر القلب أحب الدنيا والآخرة جميعًا وعمل لهما، وإذا بطن الإيمان في سويداء القلب وباشره أبغض الدنيا فلم ينظر إليها ولم يعمل لها، ولهذا ورد في دعاء آدم عليه السلام: اللهم إني أسألك إيمانًا يباشر قلبي.

وقال أبو سليمان: من شغل بنفسه شغل عن الناس - وهذا مقام العاملين. ومن شغل بربه شغل عن نفسه - وهذا مقام العارفين. والزاهد لا بدّ وأن يكون في أحد هذين المقامين، ومقامه الأوّل أن يشغل نفسه بنفسه، وعند ذلك يستوي عنده المدح والذم والوجود والعدم، ولا يستدل بإمساكه قليلًا من المال على فقد زهده أصلًا.

قال ابن أبي الحواري: قلت لأبي سليمان: أكان داود الطائي زاهدًا؟ قال: نعم. قلت: قد بلغني أنه ورث عن أبيه عشرين دينارًا فأنفقها في عشرين سنة، فكيف كان زاهدًا وهو يمسك الدنانير؟ فقال: أردت منه أن يبلغ حقيقة الزهد، وأراد بالحقيقة الغاية، فإنّ الزهد ليس له غاية لكثرة صفات النفس. ولا يتم الزهد إلا بالزهد في جميعها فكل من ترك من الدنيا شيئًا مع القدرة عليه خوفًا على قلبه وعلى دينه فله مدخل في الزهد بقدر ما تركه، وآخره أن يترك كل ما سوى الله حتى لا يتوسد حجرًا كما فعله المسيح عليه السلام، فنسأل الله تعالى أن يرزقنا من مبادئه نصيبًا وإن قلّ، فإن أمثالنا لا يستجرىء على الطمع في غاياته وإن كان قطع الرجاء عن فضل الله غير مأذون فيه. وإذا لاحظنا عجائب نعم الله تعالى علينا علمنا أن الله تعالى لا يتعاظمه شيء فلا بعد في أن نعظم السؤال اعتمادًا على الجود المجاوز لكل كمال.

فإذن علامة الزهد استواء الفقر والغنى والعز والذل والمدح والذم، وذلك لغلبة الأنس بالله. ويتفرّع عن هذه العلامات علامات أخرى لا محالة: مثل أن يترك الدنيا ولا يبالي من أخذها.

وقيل: علامته أن يترك الدنيا كما هي فلا يقول: أ بني رباطًا أو أعمر مسجدًا.

وقال يحيى بن معاذ: علامة الزهد: السخاء بالموجود.

وقال ابن خفيف: علامته وجود الراحة في الخروج من الملك. وقال أيضًا: الزهد هو عزوف النفس عن الدنيا بلا تكلف.

وقال أبو سليمان: الصوف علم من أعلام الزهد فلا ينبغي أن يلبس صوفًا بثلاثة دراهم وفي قلبه رغبة خمسة دراهم.

وقال أحمد بن حنبل وسفيان رحمهما الله: علامة الزهد قصر الأمل. وقال سري: لا يطيب عيش الزاهد إذا اشتغل عن نفسه. ولا يطيب عيش العارف إذا اشتغل بنفسه.

وقال النصرآباذي: الزاهد غريب في الدنيا، والعارف غريب في الآخرة.

وقال يحيى بن معاذ: علامة الزهد ثلاث: عمل بلا علاقة، وقول بلا طمع، وعز بلا رئاسة. وقال أيضًا: الزاهد لله يسعطك الخل والخردل، والعارف يشمك المسك والعنبر. وقال

له رجل: متى أدخل حانوت التوكل وألبس رداء الزهد وأقعد مع الزاهدين؟ فقال: إذا صرت من رياضتك لنفسك في السر إلى حدّ لو قطع الله عنك الرزق ثلاثة أيام لم تضعف في نفسك، فأما ما لم تبلغ هذه الدرجة فجلوسك على بساط الزاهدين جهل ثم لا آمن عليك أن تفتضح وقال أيضًا: الدنيا كالعروس ومن يطلبها ماشطتها والزاهد فيها يسخم وجهها وينتف شعرها ويخرق ثوبها، والعارف يشتغل بالله تعالى ولا يلتفت إليها. وقال السري: مارست كل شيء من أمر الزهد فنلت منه ما أريد إلا الزهد في الناس فإني لم أبلغه ولم أطقه.

وقال الفضيل رحمه الله: جعل الله الشر كله في بيت وجعل مفتاحه حب الدنيا، وجعل الخير كله في بيت وجعل مفتاحه الزهد في الدنيا.

فهذا ما أردنا أن نذكره من حقيقة الزهد وأحكامه وإذا كان الزهد لا يتم إلا بالتوكل فلنشرع في بيانه إن شاء الله تعالى.

* * *

obeikandl.com